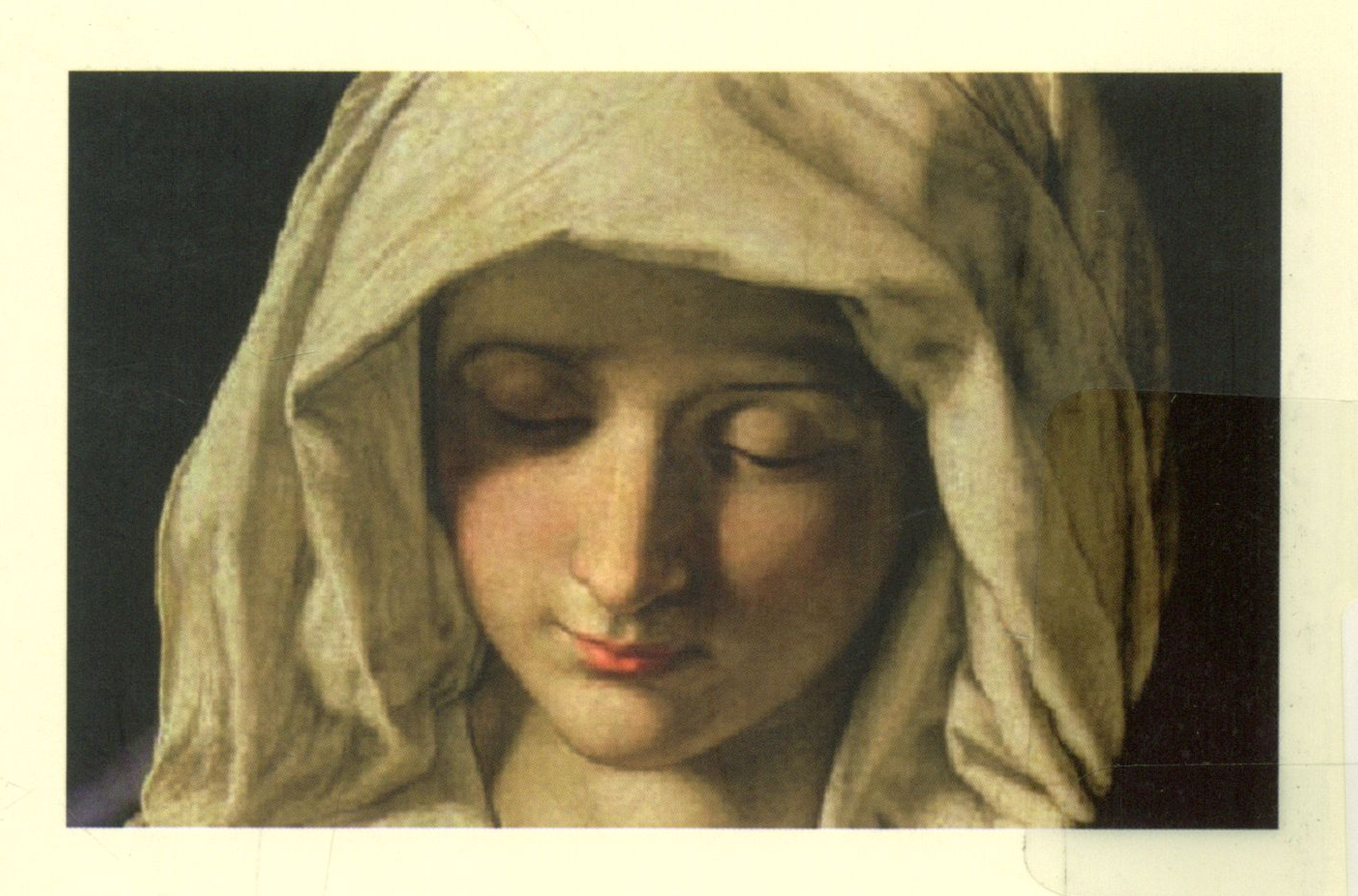
د. أيوب أبو ديَّة

الحجاب في التاريخ



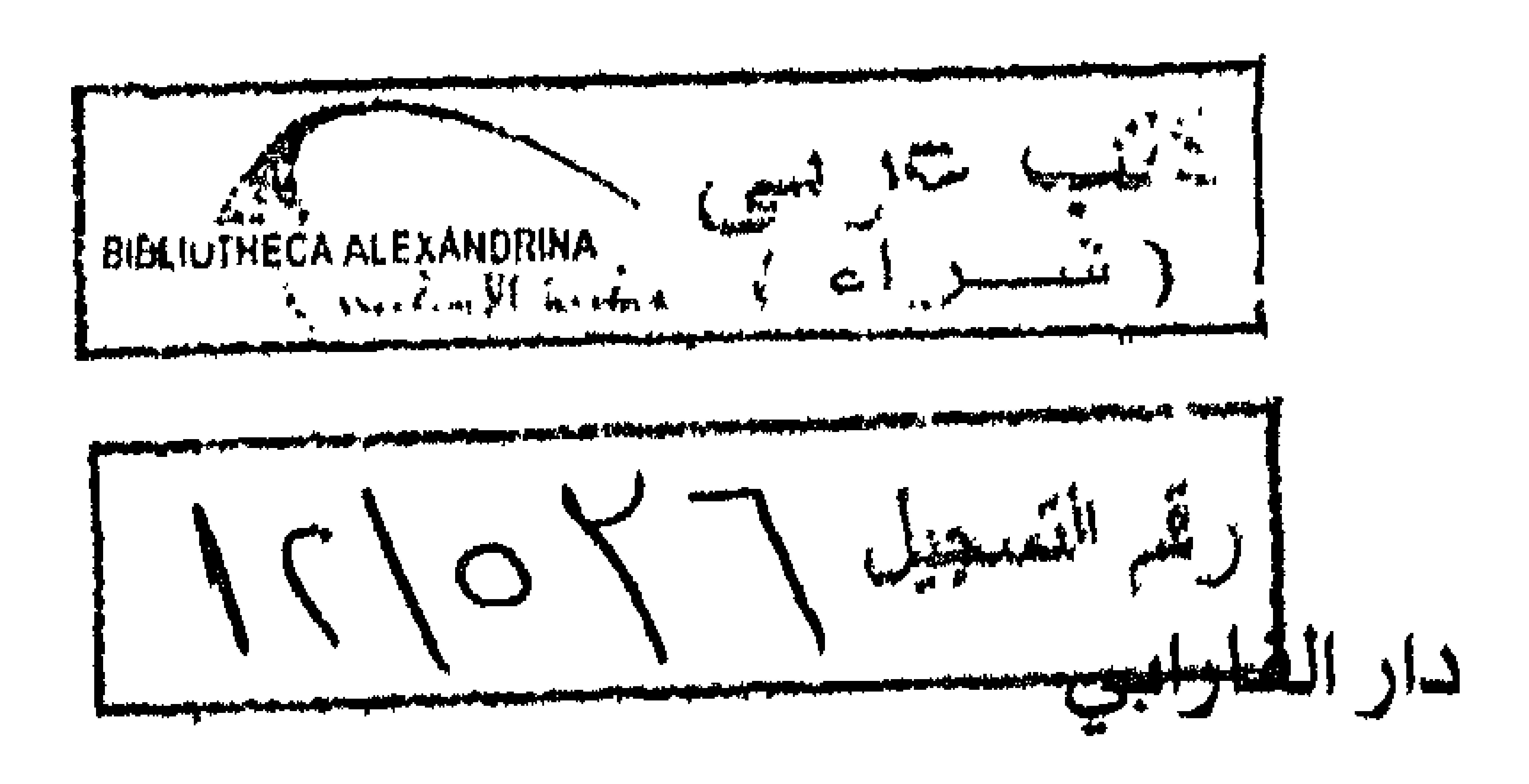
الفارابي

الحجاب في التاريخ

الدكتور أيّوب أبو ديّة

الحجاب في التاريخ

مراجعة لغوية: صفوان البخاري



دار الفارابي

الكتاب: الحجاب في التاريخ
المؤلف: الدكتور أيوب أبو ديّة
ayoub101@hotmail.com
مراجعة لغوية: صفوان البخاري

الناشر: دار الفارابي - بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 11/3181 ـ الرمز البريدي: 2130 1107
www.dar-alfarabi.com
e-mail: info@dar-alfarabi.com

الطبعة الأولى: 2012
الطبعة الثانية: كانون الثاني 2015
ISBN: 978-9953-71-815-6

مقدمة الطبعة الثانية

مُنع هذا الكتاب في طبعته الأولى في إحدى الدول العربية وقد آثار الأمر حفيظة الكثيرين، فتساءلوا: لماذا نغلق على أنفسنا أبواب التاريخ؟ وما هي الخطورة من قراءَة التاريخ؟ فالإسلام جبّ ما قبله. ولكن يبدو أن الأمر أكثر تعقيداً؛ فالمسألة باتت «وصاية على الدين». وإذا كان الأمر كذلك فمن هم الأوصياء على الدين؟ السعودية أم إيران أم داعش أم الأزهر أم مَنْ؟ ولماذا يكون أحدهم أكثر فهماً من الآخر؟ فهل هناك من هامش للحرية الفردية للفهم وفق قانون «نسبية المعرفة»؟

كلما ازداد الفكر الإنساني تقدماً كثر تأمله في معنى الحياة ومعاني عناصرها في الطبيعة مثل الحجاب ودلالاته وأسبابه التاريخية، وبات يُنظر إليه من منظور جديد استجابة للتطور التاريخي والتغير في منظومته الفكرية الإنسانية نفسها. أمّا نحن في الشرق فنكثر من النظر في التفصيلات ونهمل الجوهر؛ فعندما نقرأ عن الحجاب لا يعنينا منه البعد التاريخي، من حيث دلالاته الاجتماعية والسياسية والاقتصادية، بقدر ما يهمنا الحصول على إجابة سريعة؛ هل الحجاب شرعي أم لا؟ كيف نرتديه؟ وهل هو مميز بنا أم تشاركنا به غيرنا من الحضارات والثقافات؟

ليس المقصود من هذا الكتاب التخلي عن الحجاب أو التشدد فيه إنما فهم ظاهرة الحجاب تاريخياً وإلى ماذا كانت ترمز هذه الظاهرة في كل حقبة من حقب التاريخ والحضارات. لقد آن الأوان أن نتساءل لماذا كان الحجاب ظاهرة عامّة للنسوة عند الشعوب المختلفة في العصور الغابرة، ثم تخلّى معظمها عنه بينما نحن ما زلنا نتمسك فيه أكثر؟ فهل نحن مجتمعات أفضل أخلاقياً وروحياً؟ ولماذا أصبح الأمر ظاهرة عامة ولم نعد نتخلى عنه حتى في أوروبا فيما نتخلى بسهولة عن أمور كثيرة غيرها تتعلق بالكرامة الإنسانية وذلك لمصلحة الحياة المعيشة؟ وهل بتنا نفاخر به لأنه رمز نتميّز به فيما لم يعد لدينا شيء نصدره للغرب بعد انهيار الحضارة العربية الإسلامية سوى «تكنولوجيا الحجاب»؟

إنها مسائل ينبغي مناقشتها، وما هدف الكتاب سوى إثارة القارئ حول تاريخ الحجاب، بل فتح آفاق فهم علاقة الحجاب بالتطور التاريخي وبنية المجتمعات وتركيبتها الطبقية وما إلى ذلك. فإذا كان عنوان الكتاب في طبعته الأولى «تاريخ الحجاب» فانه يمكننا اعتباره في طبعته الثانية دراسة في «جغرافيا الحجاب» أيضاً؟

الدكتور أيّوب أبو ديّة

كانون ثاني 2015

المقدمة

تساءَلنا مراراً، ومنذ عقود بعيدة، عن أصول الحجاب في التاريخ، متى بدأ، ولماذا، وما هي الشروط الاجتماعية والسياسية والثقافية والتاريخية التي حكمت على المرأة ارتداء الحجاب؟ ومع اشتداد أهمية مسألة الحجاب في أوروبا بعد أحداث 11 أيلول/سبتمبر الشهيرة، أعدنا النظر في المسألة، فانطلقنا من المجتمعات البدائية صعوداً تاريخياً حتى وصلنا إلى بلاد ما بين النهرين خلال الألفية الرابعة قبل الميلاد، وبحثنا عن جذور الحجاب هناك في حضارة سومر، ثم في حضارة الأكديين في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وما تبعها من حضارات أشورية وبابلية.

كذلك بحثنا في أصل الحجاب في حضارة مصر القديمة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، وما كان يقابلها في تلك الفترة من حضارات آسيوية، وصولاً إلى الحضارة الإغريقية ابتداء من القرن الخامس قبل الميلاد ولغاية هيمنة الحضارة الرومانية عليها ودخولها في المسيحية فيما بعد في زمن الملك قسطنطين.

وهكذا نكون قد استعرضنا مواقف الحضارات المختلفة من مسألة الحجاب بأبعادها الإيديولوجية والاجتماعية والثقافية خلال مراحل تطورها التاريخي في الألفيات الخمس السابقة على ظهور الإسلام، وذلك للكشف عن جذور فكرة غطاء رأس المرأة ومنطوياته الفكرية في الحضارات التاريخية العظيمة التي سبقت ظهور الإسلام عند مطلع القرن السابع للميلاد، لأنّ من شأن ذلك أن يؤسس لقاعدة معرفية علّها تكون مفيدة وضرورية كمقدمة لأي بحث مستقبلي عن ظاهرة الحجاب في الحضارة الإسلامية.

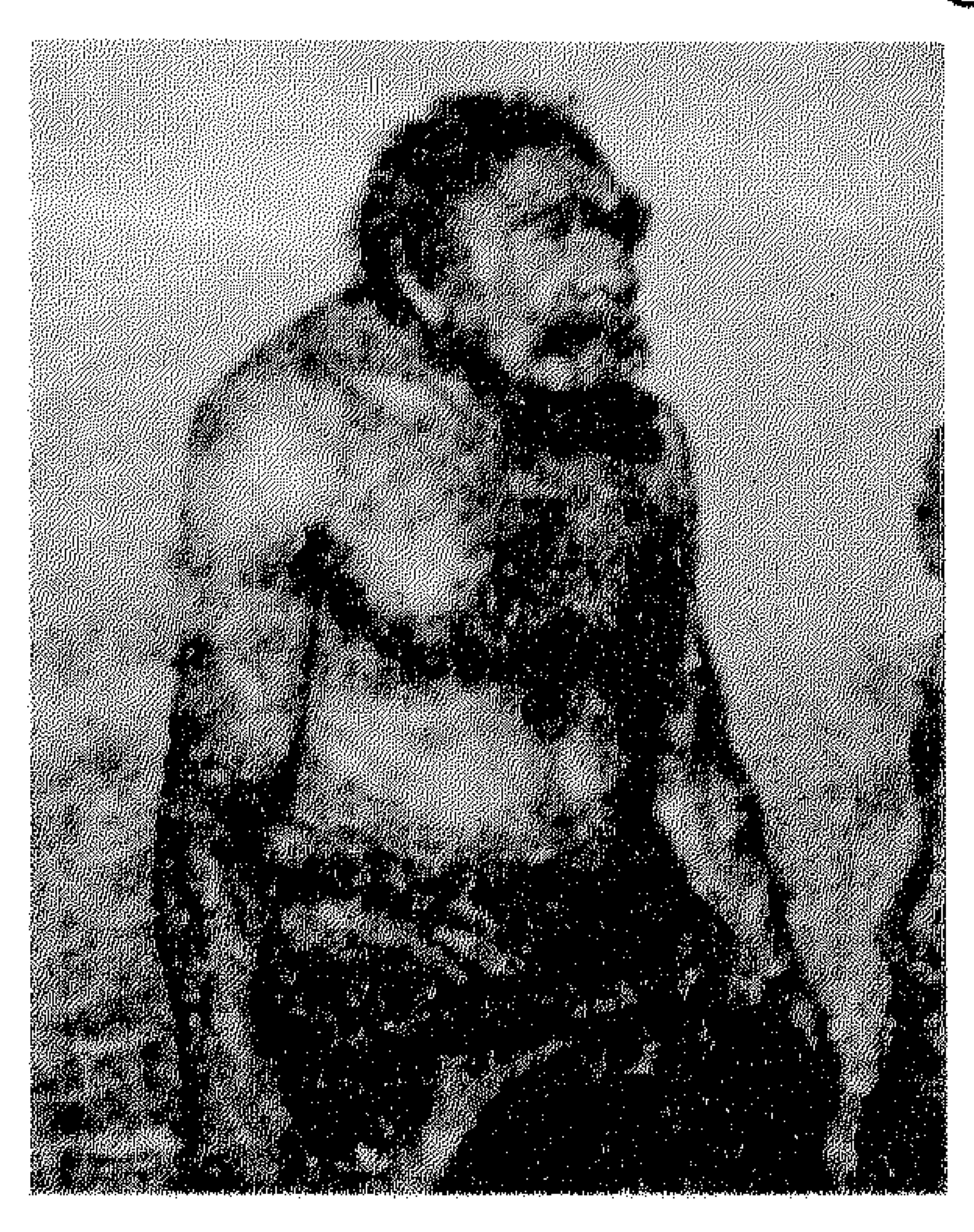
في الختام، لا يسعنا سوى التقدم بالشكر الجزيل من مكتبة النميات في البنك الأهلي الأردني بعمّان التي استعنا بمراجعها الثمينة قبل سنوات، كذلك أفدنا من ملاحظات مديرها الدكتور نايف القسوس وتوجيهاته فيما يتعلق بربط ظهور الحجاب تاريخياً من خلال ما ظهر من نقوش وصور على المسكوكات التي تم ضربها في تلك الفترات البعيدة من التاريخ البشري، حيث وصلت إلينا شاهداً حياً على معتقدات أهل تلك الحقب وثقافتهم. ولابد أيضاً من شكر المهندس صفوان البخاري الذي لا ينفك عن قراءة ما أكتب وتصحيحه لغوياً وجمالياً، إنه نعم الصديق.

أيّوب أبو ديّة

عمّان في 2011/11/11

المجتمعات البدائية

يبلغ تاريخ الإنسان عدة ملايين من السنوات، شق خلالها طريقه الوعر المليء بالمخاطر والبيئة العدائية المتوحشة؛ فقد صنع الأدوات الأولى قبل أكثر من مليوني عام في إفريقيا وأستراليا، وقد بلغ به التطور مبلغ تطويع النار لغايات الدفء والطهي وردع الحيوانات المتوحشة عن الاقتراب من مسكنه، وقد استطاع الإنسان الحديث أن يجتاز عصر الحقبة الجليدية شديدة البرودة، وخرج من ذلك العصر الشديد القسوة منتصراً على الطبيعة القاسية قبل نحو نصف مليون عام.



إنسان نياندرثال الأول

ربما يكون الإنسان قد ظهر في صورة مشابهة لما هو عليه شكله المعاصر مع ظهور إنسان نياندرثال (Neanderthal) قبل حوالى مئة ألف عام، ثم دخل بعدها في عصور تاريخية متتالية في سياق تطوره، وقد اصطلح على تسميتها بالعصور الحجرية، فالنحاسية، فالبرونزية، وهكذا، إلى أن فتحت الكتابة بداية التاريخ المدون حوالى الألفية الرابعة قبل الميلاد في سومر ومصر القديمتين، وقبل ذلك في أوغاريت السورية، حيث تمت

صياغة الحروف العربية الأولى على الشواطئ الشرقية للبحر الأبيض المتوسط.

ويخبرنا فريدريك إنغلز في كتابه عن "أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة[1] أن مورغان (Morgan) قد قسّم تاريخ الإنسان البدائي إلى مرحلتي التوحش (Savagery) ومرحلة البرابرة (Barbarism) قبل دخول الإنسان مرحلة التحضر (Civilization)، كما اعتبر أن كل مرحلة من هذه المراحل لها مراتب ثلاث. ويتجلى عصر أشعار هومر (Homer) في الإلياذه (Iliad) بوصفه أعلى مرتبة من مرحلة البرابرة قبيل دخول الإنسان مرحلة التحضر.

ويرى إنغلز في الفصل الثاني من الكتاب أن هيمنة الرجل على العائلة كانت تتويجاً لدخول الإنسان مرحلة الحضارة. فقد عبّرت هذه المرحلة عن انتماء الأبناء إلى أب واحد، وبالتالي انتظمت مسألة الإرث، حيث حُصرت في أبناء شرعيين غير مشكوك في نسبهم، وقد تطلبت

---

(1) F. Engels, *The origin of the family,* private property and the state. Written: March-May, 1884; First Published: October 1884, in Hottingen-Zurich.

هذه المرحلة الحجر على المرأة حتى يضمن الأب أن الأبناء هم من سلالته الموثوقة.

هذا الانتقال التاريخي إلى المرحلة الجديدة يفسّر لماذا كانت آلهة الإغريق الأنثوية أكثر احتراماً وإجلالاً وأوسع نفوذاً من المرأة الإغريقية في الفترات اللاحقة (عصر سقراط وأفلاطون وأرسطو) عندما حرمت من حقوقها وأصبحت المرأة جزءاً من الملكية الخاصة بالرجل.

ومما ساعد أيضاً في اضطهاد المرأة الإغريقية، وجود العبيد والجواري بوصفهم من الملكية الخاصة بالرجل الذي أصبح يتمتع بجواريه فيما اقتصرت علاقة الزوجة الإغريقية على رجلها فقط، وحجرت في البيت تحت الحراسة ومنعت من الخروج إلا برفقة إحدى الجواري أو بصحبة واحد من أهل بيتها من الرجال كمُحْرَم. وكان الرجال يضيقون الخناق على زوجاتهم وبناتهم بوضع كلاب لحراستهن كي يُبعدوا عنهن المتطفلين والمعجبين.



تصارع أخيل وأغاممنون على جارية حسناء

واشتدت المنافسة بين الرجال من الإغريق على امتلاك الجواري، كما حدث مع أخيل (Achilles) وأغاممنون (Agamemnon) عندما تصارعا للاستحواذ على إحدى الجواري. وهذا يذكرنا بفترة الخلافة الأموية عندما ازداد عدد الجواري عند الأشراف من العرب وأصحاب النفوذ بحيث أخذت الجواري يخلبن لباب العرب فانصرفوا عن الاهتمام بزوجاتهم وسجنوهن داخل البيوت تحت الحراسة، وأمرن بعدم مغادرة البيت إلا محجبات وبرفقة المحرم حتى لا يطمع فيهن العامة ويُظن أنهن من الجواري.

أما في المجتمعات البدائية الأقل تطوراً، فإن الدراسات الأنثروبولوجية الحديثة تميل إلى الاعتقاد أن الأسرة في المجتمعات البدائية لم تعرف المشاعية في علاقات الذكور مع الإناث؛ فلم يكن الذكر فيها يستحوذ على ما ملكت يمناه من الإناث بالقوة والترهيب، كما يغلب الظن. فعلى سبيل المثال، يرى بعض الباحثين أن نساء رجل الكهف الأول لم يَكنّ مشاعاً لجميع الرجال[2]؛ بل كانت الأم لها مكانة مقدسة بسبب ولادتها الأطفال على نحو خلاق لم يتمكن أحد من تفسيره آنذاك، فحسبن في مقام الآلهة التي تهب الحياة من العدم في سر مكنون.

ومع تدرج التطور الإنساني أخذ يسود نظام الزواج الأحادي، أي الاكتفاء بزوجة واحدة[3]. ولكن الظروف المتغيرة كانت تكسر هذه القاعدة، ففي المجتمعات التي

---

(2) بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ترجمة فائق دحدوح، دار نينوى، 1999، ص 44.

(3) باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، ص 12ـ17.

تئد بناتها لعاهة أو مرض أو لإقامة الطقوس، كان يسود نظام تعدد الأزواج، وربما يكون المجتمع الجاهلي قبل الإسلام مثالاً على ذلك. ومما يؤكد هذه المسألة وجود بعض المجتمعات البدائية المعاصرة في مجاهل الأمازون وإفريقيا التي اكتشفها المستعمرون من الأوروبيين وكانت لا تزال تمارس هذا النمط من السلوك في الحياة العامة.

وعلى عكس المرأة الإسبارطية التي تمتعت بهامش واسع من الحرية، لم تتحرر المرأة الإغريقية بعامة إلا عندما انتشر البغاء وارتقت في سلم الحياة الاجتماعية نساء أجنبيات من الجواري والوافدات من الشاعرات والفنانات. وهكذا أصبحت المرأة الغريبة حافزاً للمرأة الإغريقية كي تتحرر من قيودها، فانطلقت للتعبير عن حاجتها لممارسة بعض حقوقها المهضومة.

وهذا يقابل ما حدث في الفترة الإسلامية الأولى عندما انتفضت النساء المحجبات وخرجن سافرات إلى المجتمع بعد أن استحوذت الجواري الجميلات والمثقفات على عقول الرجال. كما طالبت النسوة الأحرار بالتعليم لمنافسة الجواري وطلبن من الشعراء التغزل بهن

وبمفاتنهن كي يسمع عنهن الرجال ويأتوا لطلبهن من أهلهن[4].

وبناءً عليه، ربما لم يمر النظام الأسري عبر مرحلة الفوضى الجنسية، كما يظن في الغالب، وذلك خلال مراحل تطوره التاريخي، حتى بلغ مرحلة النظام الأمومي وتطور إلى النظام الأبوي؛ فذلك المنحى من التطور ليس حتمياً تماماً من وجهة نظر علماء الأنثروبولوجيا المحدثين. وهذه النتيجة تقودنا إلى التساؤل عن أسباب تردي أحوال المرأة عبر التاريخ، فيما يتعلق بحريتها الشخصية وتهافت نفوذها داخل الأسرة والعشيرة؟

أغلب الظن أن المرأة، في خلال مرحلة النظام الأمومي الأولى، كانت تتمتع بهامش كبير من الحرية والنفوذ نسبة إلى المرحلة التي دخلت فيها البشرية مرحلة النظام الأبـوي، حيث أصبحت المرأة ممتهنة وهمُمش أمرها.

ونحن نرى أن مدى حرية المرأة وأهميتها في إدارة

---

(4) عبد السلام الترمانيني، الرق: ماضيه وحاضره، ط1، الكويت: عالم المعرفة، 1979، ص 34.

شؤون الحياة الأسرية، المعرفية والاقتصادية والروحية والسياسية، لا بد أن تنعكس من خلال دورها الاجتماعي الإنتاجي وأهميته، وبالتالي لا بد أن تتمظهر هذه الأهمية من خلال الطريقة التي كانت تضع فيها المرأة الحجاب وتتزين وتتبرج وما تمخض عن هذه الممارسات من تعبيرات طبقية ونفوذ!

إنّ تحرر المرأة مرتبط بمستوى وظيفتها الإنتاجية في خضم علاقات الإنتاج في داخل العشيرة أو القرية، فقد كانت منتجة للبنين، وأيضاً كانت منتجة للغذاء، وبخاصة في طور حياة الصيد الأولى عندما شرعت، أي المرأة، في الزراعة البدائية الأولى وتربية الأطفال والحيوانات. فقد كانت ربة البيت (أي إله البيت) الولود هي سيدة المنزل التي حفّزت ظاهرة عبادة الآلهة الأنثوية بوصفها ظاهرة خارقة[5]، وفي الوقت نفسه كانت المرأة على الصعيد العملي هي المنتجة للغذاء؛ فتحافظ عليه وتخزنه وتدير شؤونه وتقوم بطهيه!

---

(5) عزيز السيّد جاسم، المفهوم التأريخي لقضية المرأة، 1986، ص 12، 13.

وإذا ما انتقلنا إلى حياة الريف المعاصرة نجد أن المرأة ولا تزال تحظى بالاهتمام والتقدير المكافئين لقدرتها على الإنتاج وإدارته، فما فتئنا نلحظ بعض النسوة من ذوات النفوذ والرأي والمشورة، وذلك بحكم طبيعة المرأة وعملها أو بحكم وظيفتها ومستوى تعليمها ومقدار نفوذها وقيمة ملكيتها. وسوف يتبدى لنا هذا التقدير من خلال مناقشة أحوال النساء المصريات فيما بعد.

بلاد ما بين النهرين

الحضارة السومرية (الألفية الرابعة قبل الميلاد)

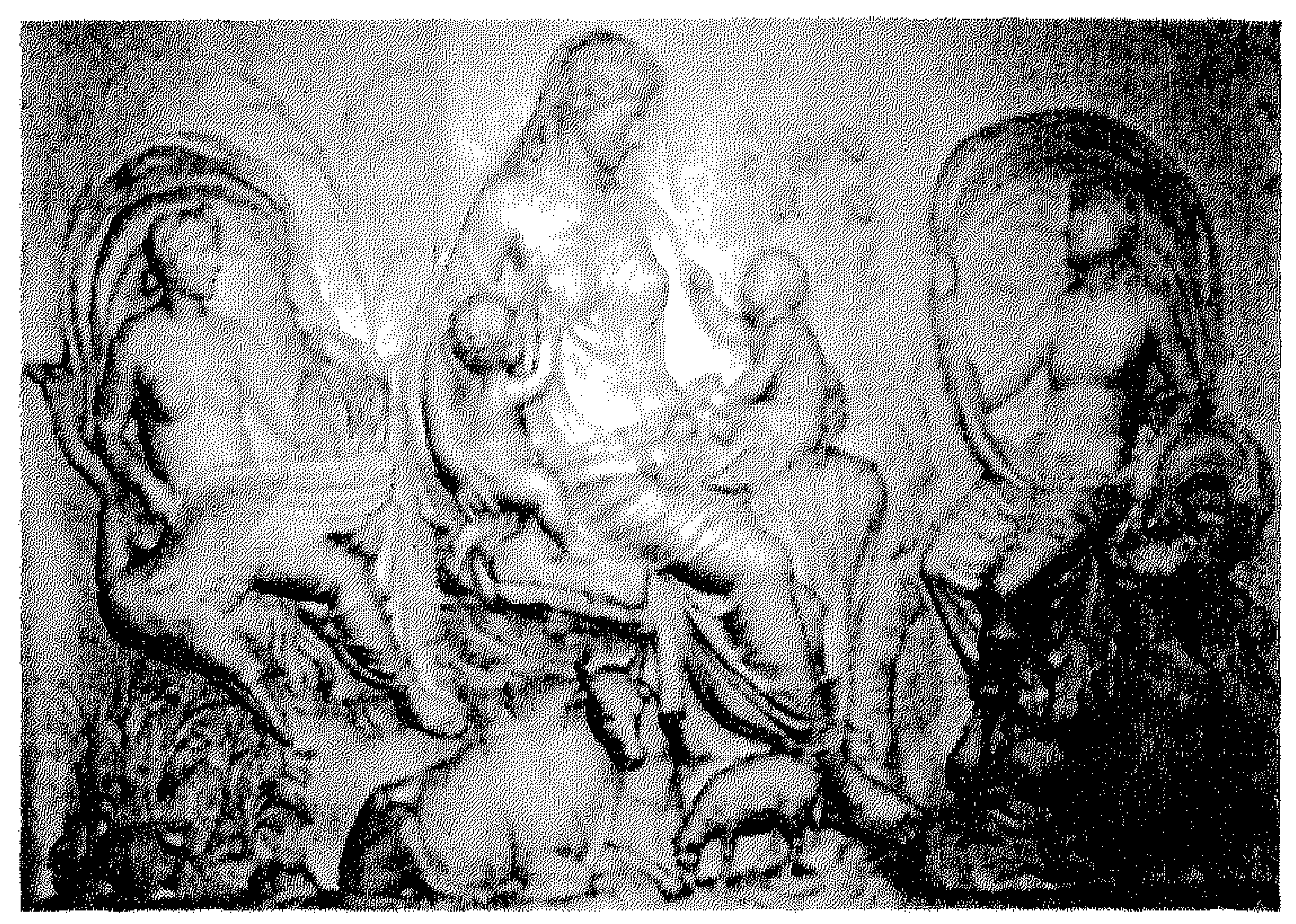
ازدهرت الحضارة السومرية في الألفية الرابعة قبل الميلاد حول دجلة والفرات، ربما عند حوض جمع النهرين معاً في حوض عظيم أسس لهذه الحضارة الفريدة. وإذا ما دققنا نظرنا في أسطورة أصل الكون عندهم، نجدها تقوم على أن الكون متجسد في الإلهة «نمو» التي تعطي الحياة بصورة الأنوثة والذكورة متحدة في شخص «آن» و»كي»[6]، فهل هذا الاتحاد في شخص واحد دليل على أنه لم يكن هناك تمييز واضح بين الجنسين في الجذور التاريخية للإنسانية؟

(6) م. ن، ص 14.



آلهة الذكورة والأنوثة معاً (Lilith)

ويمكن أن نستدل على ذلك في الكثير من اللغات القديمة حيث لا يوجد تمييز بين الذكر والأنثى في المخاطبة. ومثال ذلك اللغة الفنلندية، حيث تشير كلمة (han) إلى الجنسين من دون تمييز، بينما يتم التمييز من سياق الجملة إذا كان المقصود ذكراً أم أنثى.



جايا (آلهة الأرض) تنجب أورانوس السماء وبنتوس المحيط
Gaya gives birth to Uranos (heaven) and Pontos (ocean)

كذلك نجد الفكرة نفسها عند الإغريق؛ ففي الميثولوجيا الإغريقية نجد أن الأرض «جايا» (Gaya)، وهي الآلهة الأوائل، التي أنتجت بدورها، في هذا المناخ من الفوضى، إلهاً جديراً بها هو «أورانوس السماء» (Uranos)، وآخر هو «بنتوس المحيط» (Pontos) (مياه المحيط) حيث غطى الأول الأرض تماماً من جميع

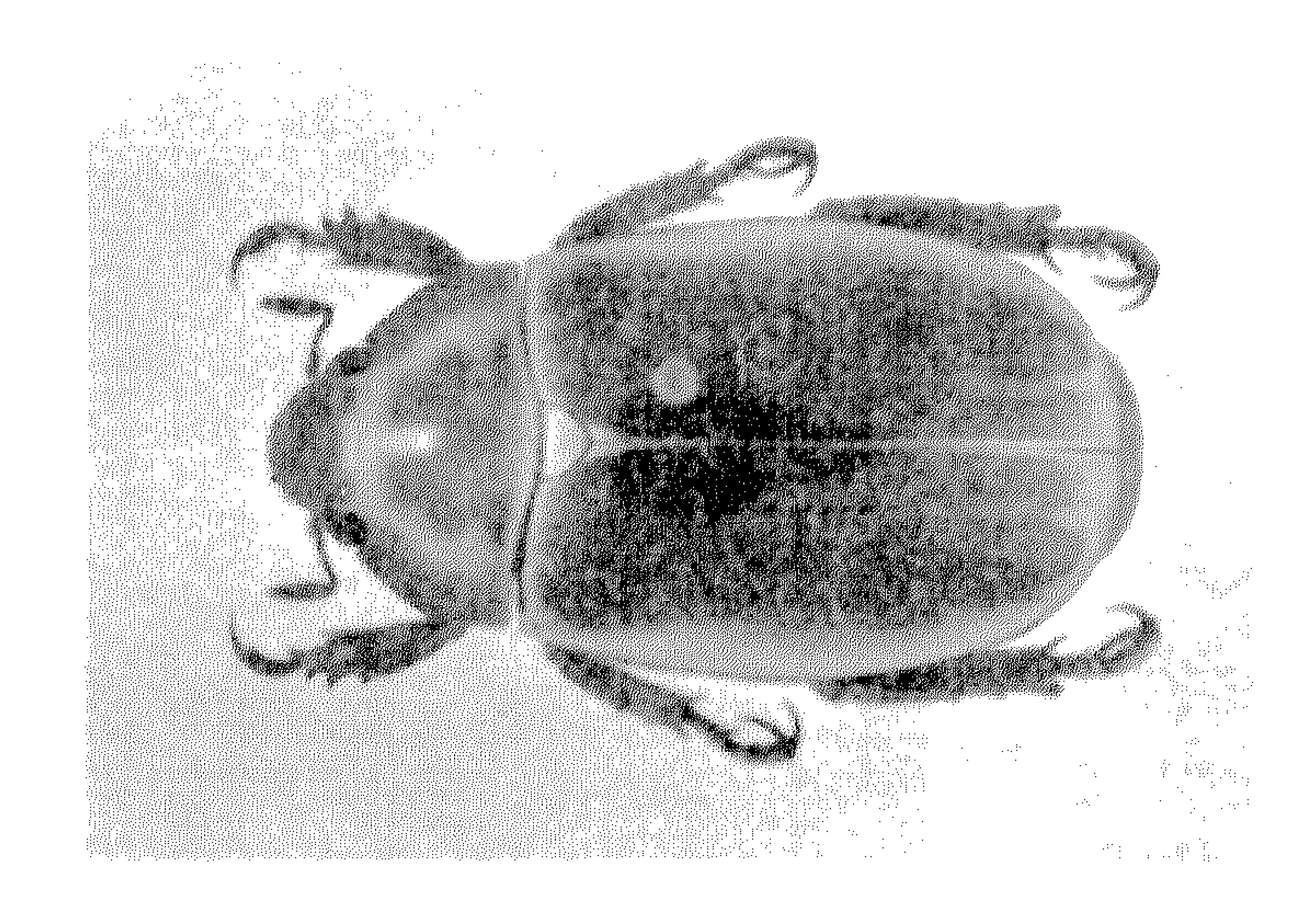
الجهات وكذلك غمر الثاني الأرض بالمياه. وقد كانت الإلهة "جايا" مخصبة ذاتياً[7].

عبد المصريون القدماء الجعلان (Scarabs) أو الخنفساء بوصفها من تجليات إله الشمس أتوم (Atum)، وأُطلق عليها كيبري (Khepri)، أي الإله الذي يُخلق من العدم ولا يحتاج إلى تزاوج، كذلك يدفع هذا الإله الشمس في مسارها عبر الأفق حتى تختفي "خلف الأرض"، على نحو مماثل لدفع الجعلان الروث ليدفنه تحت الأرض كي تبيض فيه الأنثى، ليولد نسلها من جديد على أنقاض الفضلات.

وتعيش هذه الخنفساء (Beetle) على روث الحيوانات والفضلات غير المهضومة المتبقية فيها، وهي تقوم بدفن الروث تحت الأرض لحمايته وخزنه، لذلك فإنها تحمي البشر والحيوانات والنباتات من انتشار الأمراض، أي أنها جاءت رحمة للطبيعة الحية على تنوعها، الأمر الذي جعل مكانتها في مصاف الآلهة.

---

(7) سيد القمني، الأسطورة والتراث، ص 59.



الجعلان Scarabs (الخنفساء المصرية المقدسة)

وهذا يذكرنا بالأفكار المعاصرة التي تطرح اليوم بشأن الإنسان الأول الذي بدأ خنثى يقوم بالوظيفتين معاً، ثم في سياق تطوره التاريخي اتجه صوب التخصص في الإنجاب من خلال الأنثى والتركيز على الصيد والمهارات الأخرى من خلال تطور مهاراته وقواه الجسدية والعقلية ليتمكن من الصيد بكفاءَة أكبر والدفاع عن جنسه بقوة أعظم.

وأسطورة الإله أغديتيس (ابن زيوس) الذي ولد

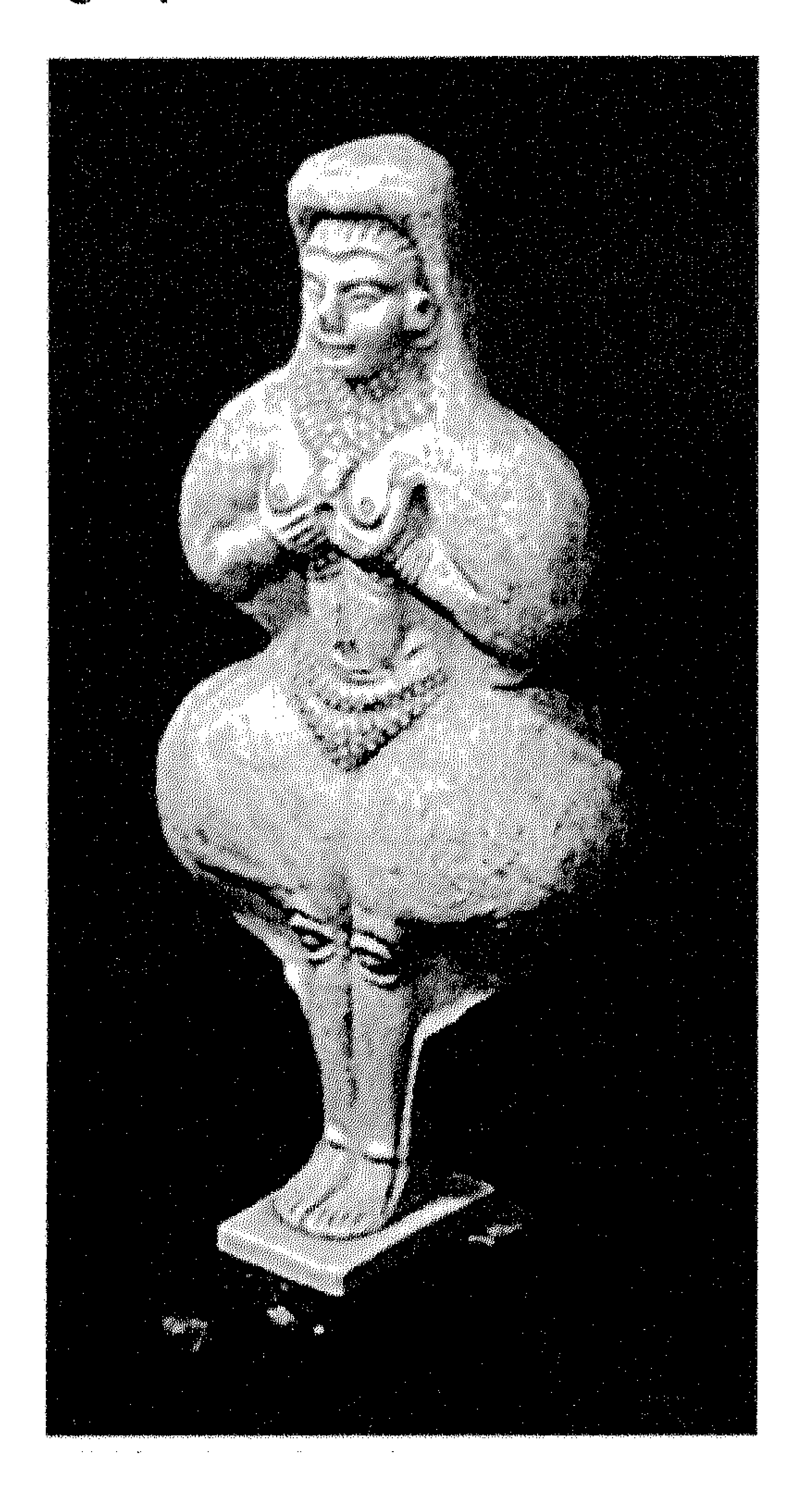
خنثى، ثم استأصلت الآلهة أعضاءه الذكرية فأصبح أنثى[8] تؤشر في الاتجاه السالف الذكر عن أصل الإنسان. فهذه الأساطير جميعها، بما في ذلك اللغات القديمة، تطرح السؤال عن إمكانية انبثاق الذكر والأنثى من أصل خنثى؟

كانت فكرة الكائن الثنائي الجنس معروفة لدى السومريين، ويخبرنا كاهن بابلي اسمه بيروسوس، عاش في القرن الثالث قبل الميلاد، عن مسوخ وعن كائنات بدائية هجينة ومخنثة في أزمان ما قبل التاريخ. وقد ظهرت هذه التماثيل الخناثى حول معابد بابل واليونان[9]. وكانت عشتار عندهم تظهر على شكل رجل ملتحٍ، له أعضاء ذكورية وأنثوية معاً[10].

(8) بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 300.

(9) م.ن، ص 34.

(10) م. ن، ص 76.



عشتار- إلهة
الحب والخصب
والحرب عند
البابليين

كذلك كانت آلهة النيل «حابيس» تتسم بخصائص ذكوريّة وأنثوية معاً[11]. فهل هذه الفكرة هي أساس اعتقاد خلق المرأة من ضلع الرجل؟ وهل آدم وحواء هما رمز الانفصال إلى مزيد من التخصص البشري في علم وظائف الأعضاء؟ وهل آدم هو الإنسان الأول الذي يستحق أن يسمى أباً لأول مرة في تاريخ البشرية؟

ألا يحق لنا أن نتساءَل: هل كان الإنسان خلال الفترات التاريخية السحيقة كلها منقسماً إلى نوعين متميزين، ذكوراً وإناثاً، أم أنه بدأ خنثى، ثم انفصل إلى آدم وحواء وفاقاً للرواية الدينية التقليدية؟

نود أن نطرح نظرية جديدة ههنا مفادها أن الإنسان البدائي الأول كانت أعضاؤه التناسلية مجتمعة ومتكاملة، بمعنى أنه كان من جنس واحد مكتف ذاتياً لإتمام عملية التزاوج، أي أنه كان خنثى. ولكن، وفي سياق تطوره التاريخي عبر الملايين من السنين بدأت أعضاؤه المختلفة تتجه أكثر نحو التخصص لزيادة كفاءَتها في أداء وظائفها، وهذا النمط من التطور مثبت في علم البيولوجيا

(11) م. ن، ص 119.

المعاصر؛ فثمة بعض الأعضاء عند الذكور اليوم لا وظيفة لها، كالحلمات في صدر الرجل مثلاً. بل ويمكن القول إن التخصص الحالي لكل من الذكر والأنثى هي نتائج طفرات جينية انبثقت عن الأصل الذي ضم الخصلتين، ويمكن القول أيضاً إن الحالات النادرة التي تولد اليوم خنثى هي الأصل وليست طفرات جينية!

لقد روت حضارة الرافدين قصص الغرام بكوكب الزهرة، عشتار، سيدة السماء، البتول[12]، آلهة الحب والخصب والأنوثة في الليل، وآلهة الحرب في النهار. فهذه عشتار أنثى وذكر في آن معاً. كانت عشتار تخدع عشاقها وتفتك بهم، كما فعلت بتموز (أدونيس)، حيث ظلت النسوة يبكين تموز حتى زمن النبوة، كما تذكر المراجع التاريخية. ولكن يبدو أن الأمور قد استقرت فيما بعد، أي أنها استقرت على الفصل الواضح والمحدد بين

---

(12) القوة الإحصائية الكونية المتمثلة بآلهة الحب العذراء، (فراس السواح، مغامرة العقل الأولى: دراسة في الميثولوجيا السورية والرافدينية، ط1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1976. ص 292).

الجنسين. كان ذلك في حضارة بلاد ما بين النهرين التي عرفت تدوين التاريخ لأول مرة في تاريخ البشرية.

كان يوم عبادة الزهرة (أو العزى – آلهة الجاهلية) في التقويم البابلي هو يوم الجمعة[13]. وقد رحلت من بلاد الرافدين عبادة الزهرة (وهي الإلهة نينا (NINA) عند الآشوريين – آلهة الحب الجسدي)[14]، أو عشتار كما أطلق عليها البابليون، لتصبح «عستارت» في أرض كنعان، و«أفروديت» في بلاد اليونان[15]، و«فينوس» أو «ستيلا ماري» عند الرومان. والاسم مريم كان اسماً عاماً يطلق على آلهة الخصب[16]. كانت المرأة آنذاك لا تزال ذات قيمة وأهمية بالغة في حياة الناس الروحية والمادية.

---

(13) سيد القمني، الأسطورة والتراث، ص 73.

(14) م. ن، ص 60، 61.

(15) فراس السواح، لغز عشتار، ط6، دمشق: دار علاء الدين، 1996، ص 98.

(16) عباس محمود العقاد، الله، ط1، القاهرة: دار نهضة مصر، 1994، ص 30.



عشتار هي أفروديت (آلهة الحب عند الإغريق)

تظهر عشتار عارية في التماثيل الظاهرة في الصورة(17). فلم تكن ظاهرة الحجاب ذات أهمية بعد! كذلك كانت تماثيل الإلهة الأم القديمة والسمينة ذات الخصوبة تظهر بالشكل العاري في أغلب الأحيان، مع التركيز بشكل خاص على الأثداء والوركين دلالة على الخصوبة. فلم تظهر فكرة «العورة» بعد!

كانت العادة تجري على أن تضحي الفتيات

---

(17) Larousse Encyclopedia, 1960 edition, p. 58.

السومريات ببكارتهن في معبد إله المدينة، وكانت التضحية بهن تتم إكراماً للآلهة. وتمارس هذه التضحية ببكارتهن من خلال الكهنة بوصفهم ممثلي الآلهة على الأرض. أما بعد الزواج فكانت تتعرض النسوة لعقوبة الإعدام إذا هن جُرّمن زانيات[18].

لقد بدأت القيود توضع في معاصم النساء بشكل واضح، ففيما كان ينجو الرجال بجرم الزنا من دون عقاب، خضعت المرأة فقط لعقوبة الإعدام إذا جرمت زانية.

في بلاد سومر، كانت كثافة الشعر عند المرأة صفة للتغزّل، كما تروي إحدى القصائد السومرية :

« يا كثيف الشعر مثل النخلة .... ».

واعتبرت زينة المرأة أمراً أساسياً كما أظهرت الكثير من النقوش السومرية[19]، وكان الاضطهاد لم يُمارَس بعد على المرأة!

---

(18) بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 76، 77.

(19) خزعل الماجدي، إنجيل سومر، ط1، عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع، 1998، ص 87، 91.

من السومريين إلى الأكديين
(الألفية الثالثة قبل الميلاد)

في الفترة التي تفصل بين العصر السومري الأول والعصر السومري الذهبي الثاني الذي بدأ مع نهاية الألفية الثالثة ق.م، نجد شعر النساء يبدو متموجاً ومزيناً بعمامة مدورة تشبه العصابة السميكة[20]. فقد بدأت العصابة تشق طريقها صوب تاريخ المرأة بارتباطها مع الحجاب، ولكن العصابة كانت تعبيراً مختلفاً عما يراد بها اليوم.

---

(20) مجموعة من الباحثين، حضارة العراق، ج4، لا ط، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985، ص356.

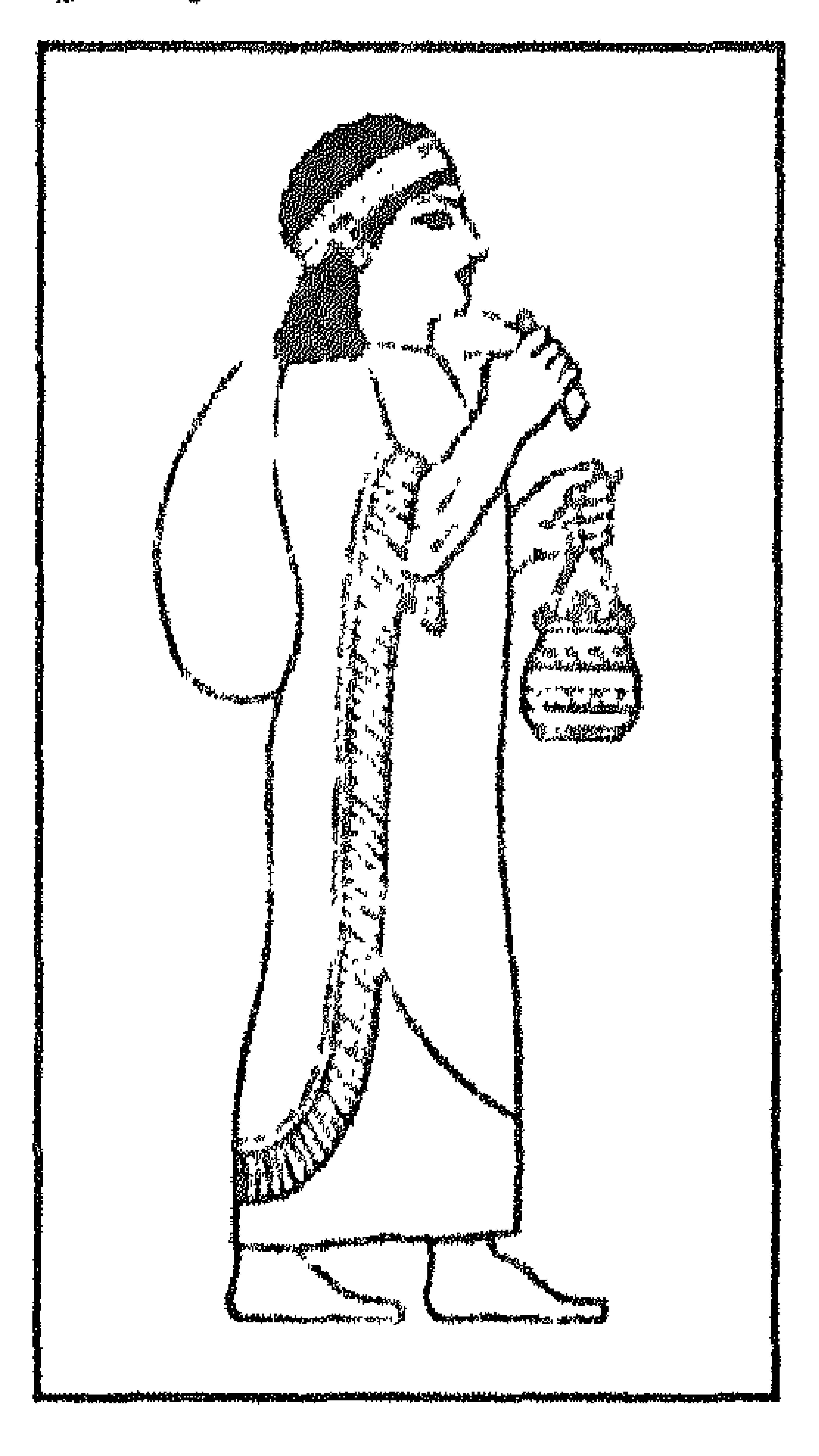


عصابة على رأس
عشتار البابلية

تصور البابليون نحو عامي 2200 — 2100 ق.م آلهتهم مع عِصابة على شعرها، فآلهة الشمس البابلية تبدو وشعر رأسها منسق بديع تطوقه عصابة[21]، كما يبدو في الصورة. ويبدو لنا أن هذه العصابة استعملت لتجميل الشعر في تلك الفترة من التاريخ القديم. لقد أخذنا نقترب شيئاً فشيئاً من غطاء الرأس. لقد كانت هذه هي البداية صوب إحكام الغطاء حول الشعر.

---

(21) Larousse, *World Mythology*, Edited by P. Grimal, London: Daul Hamlyn, English edition, 1965, p. 60.



عصابة على رأس امرأة بابلية

ثم جاء سرجون الأول ملك أكد قبيل انتهاء الألفية الثالثة قبل الميلاد، وهو صاحب الولادة المثيرة التي تشبه قصة ولادة النبي موسى إلى حد المطابقة. قهر سرجون الأول السومريين، ولكنه أبقى على أخلاقيات الشعوب المغلوبة وممارساتها الطقوسية. وأخيراً، جاء حمورابي وسن الشرائع التي أعطت حقوقاً كثيرة للمرأة لا تزال

المرأة محرومة منها في يومنا هذا[22]، كحقوقها الكاملة في الشهادة والإرث.

وقد تطور فن تصفيف الشعر مع سيطرة الأكديين، وتميز لباس رأس المرأة البابلية بكونه غير معقد الزينة، وفي الوقت نفسه تمتعت المرأة بحرية اجتماعية تامة في تلك الفترة الذهبية من تاريخها القديم.

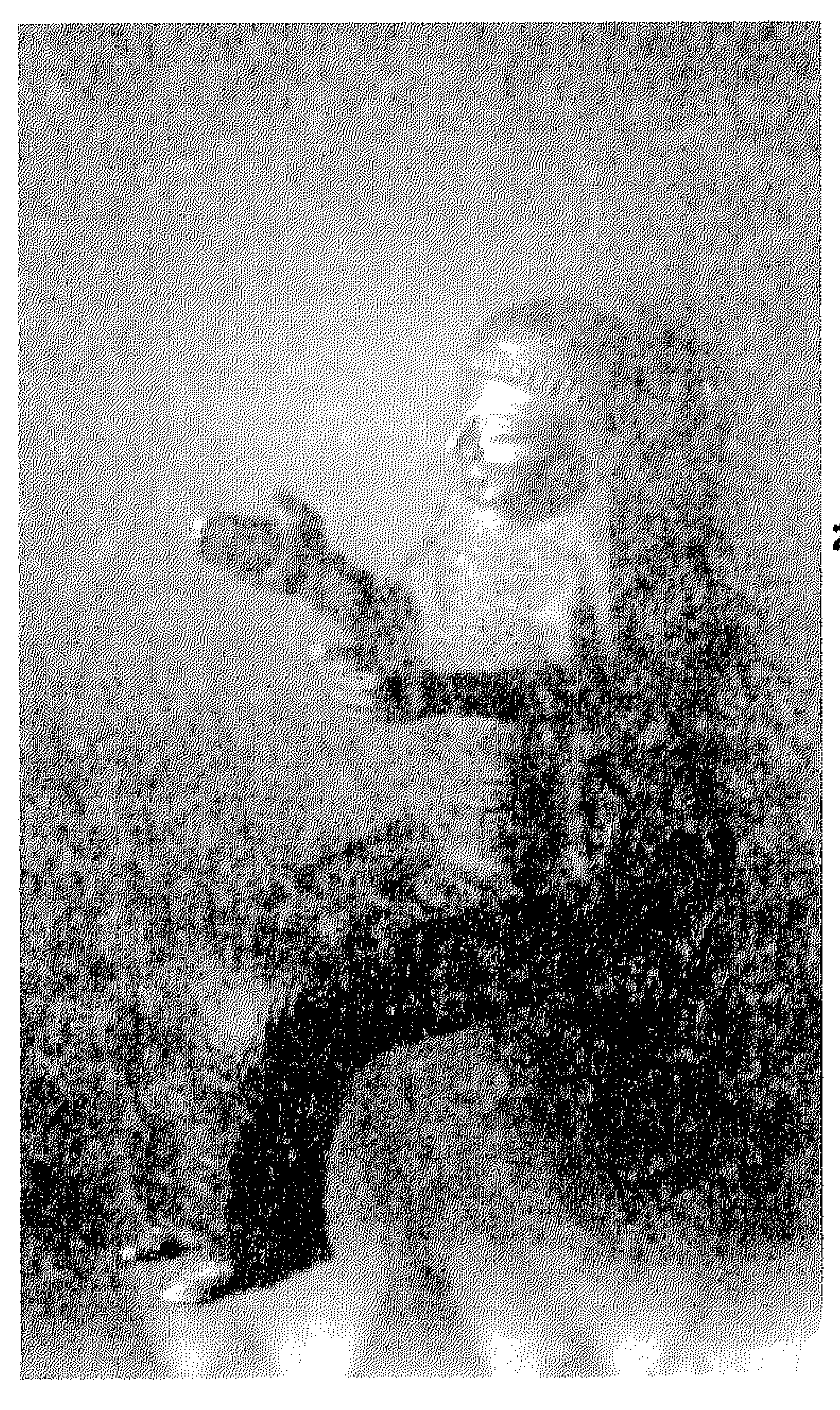
---

(22)بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 89 – 93.

الأشوريون (1250-600 ق.م)

من اللافت في تلك الفترة أن ظهور المرأة كان نادراً. فإذا خرجت كان حجاب المرأة يصنّف الطبقة التي تنتمي إليها؛ فالملكة تلبس التاج، كالملكة آشورشرات، زوجة الملك آشور بانيبال، أما الوصيفات وحاشية الملكات فكن يبدين مجردات من زينة الشعر ويكتفين بتصفيفة مألوفة لشعرهن. أما النسوة الأحرار فكن يرتدين عباءَة تسفر عن الوجه فقط، وذلك عند الخروج إلى الشارع، فيما فرض على الإماء السفور[23]؛ لتمييزهن عن النسوة من الحرائر. لذلك يمكن القول إن وظيفة الحجاب في تلك الفترة كانت بغرض التصنيف الطبقي للنساء.

(23) مجموعة من الباحثين، حضارة العراق، ص 359.



آلهة الخصب الآشورية
في القرن الثامن
قبل الميلاد

جعل الاحتلال الأشوري لمناطق شاسعة من بلاد ما بين النهرين والهلال الخصيب، فضلاً عن طبيعة الدولة الحربية الجديدة، النساء أسيرات في بيوتهن، فلم يسمح

لهن بالخروج بغير حجاب[24]. وهذه الحقبة من التاريخ الأشوري قريبة من دخول بلاد الإغريق في عهد أشعار هومر بداية حقبة الحضارة الإنسانية وسيادة النظام الأبوي، كما أخبرنا فريدريك إنغلز في كتابه «أصل العائلة والملكية الخاصة والدولة».

كان الحجاب إلزاماً على النساء الحرائر في آشور حوالى القرن الثاني عشر قبل الميلاد، أما النساء الأخريات من الإماء والسيئات الصيت فكنّ يمنعن من ارتداء الحجاب تحت طائلة عقوبات شديدة[25]. ولا نعلم إلى أي مدى كان للعبرانيين تأثيرٌ على مجرى الأحداث فيما بعد؛ فهناك رواية في التوراة عن لبس المومسات غطاء على الوجه. سنتحدث في الصفحات اللاحقة عن الحجاب عند اليهود في العهود الغابرة وسنعقد مقارنة بين مختلف الديانات.

ويمكن تلخيص أسباب تحجب المرأة في المجتمعات القديمة في العناصر الآتية:

---

(24) بول بريشاور، م. س، ص 99.

(25) باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، ص 31.

1ـ التشريع الديني المرتبط بالطقوس والكهانة والأسطورة.

2ـ ترسيخ مفهوم التمييز بين طبقات الشعب.

3ـ عدم سيادة الأمن والاستقرار المصاحب للانحطاط الحضاري.

4ـ الغزو وما يترتب عليه من نتائج سبي للنساء وفناء عرق المهزوم.

5ـ حاجات الغزو إلى مزيد من المحاربين، وما يترتب على ذلك من استغلال للمرأة، كما حدث عند الأشوريين.

6ـ ظهور النظام الأبوي والملكية الخاصة حيث اعتبرت النساء والعبيد من الممتلكات الخاصة.

البابليون (600 – 539 ق.م)

تصبح الأمور عند البابليين أكثر وضوحاً؛ فآلهة الأمومة «مامي»، هي الأرض والتربة الخصبة، ويعادلها عند الكنعانيين «عشيرة». كانت الأرض هي الأم ومركز الحياة الروحية والعبادة[26]، وهذه الاعتقادات كانت سائدة عند حضارات الهنود الحمر في جنوب أميركا. لقد استردت النسوة أهميتهن التاريخية من جديد مع انهيار الحكم العسكري الأشوري.

ارتدت نساء بابل الثياب الفضفاضة والغنية بألوانها، وتفاخرن بحبهن لمسرات الحياة ولذائذها، وتزينَّ باللآلئ

(26) عزيز السيد جاسم، المفهوم التأريخي لقضية المرأة، ص 15.

والجمان وحسرن عن أكتافهن في أيام الأعياد ....[27] هذا التغير المهم ربما نستطيع أن نربطه بالاستقرار والرفاهية والأمن والميّزات الأخرى التي تمتعت بها الحضارة البابلية في تلك الفترة.

---

(27) بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 97.

حضارة مصر القديمة

كانت المرأة في حضارة مصر القديمة تحظى بتكريم واحترام كبيرين، وكانت النسوة يتمتعن بحق الملكية والتوريث ويخرجن إلى الأسواق سافرات، وكان الزوج يتنازل عن جميع أملاكه لزوجته عند اقترانه بها.

وعندما قام هيرودوت، المؤرخ والرحالة اليوناني، بزيارة مصر في القرن الخامس قبل الميلاد، اندهش من حياة المرأة المصرية وتحررها واختلاطها بالناس[28]. ومن يقرأ المنقوشات الفرعونية التي كتبت عام 2800 ق. م يندهش من الحقوق التي كانت تتمتع بها المرأة المصرية[29]، وهي قريبة من شرائع حمورابي. ولم يكتب التاريخ عن تقلص دور المرأة وانحسار نفوذها والتعصب

(28) باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، ص 40.

(29) م. ن، ص 134.

ضدها إلا عندما غزا الهكسوس مصر وأدخلوا التقاليد الأبوية إليها[30]، فيما أشاعوا الرعب والخوف وعدم الاستقرار في أرجاء مصر كافة.



معات ـ آلهة الحقيقة والعدل والانسجام

(30) عزيز السيد جاسم، المفهوم التأريخي لقضية المرأة، ص 17، 18.

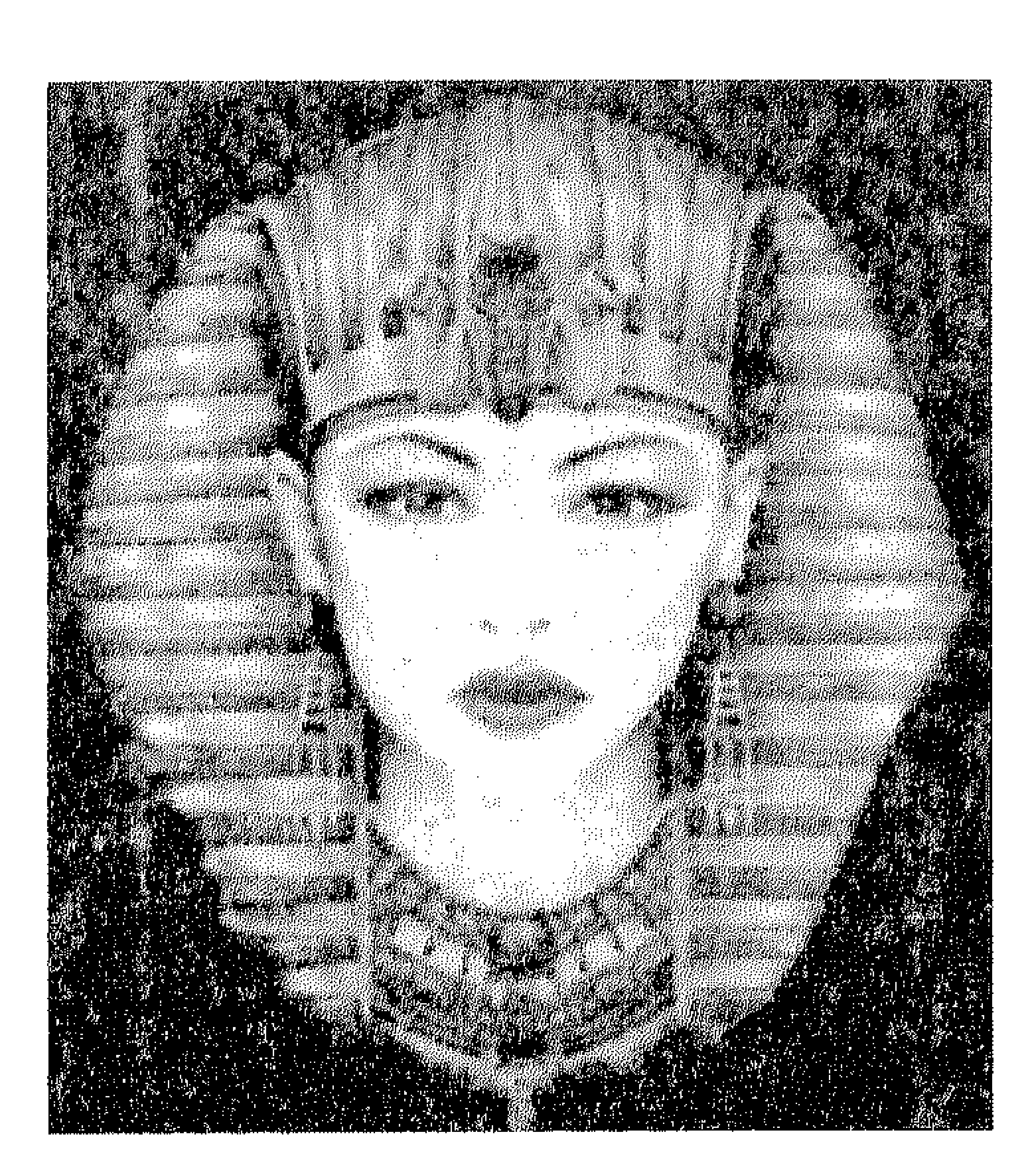
فعندما شاع الغزو والحرب في المجتمعات البشرية حدث تغير جوهري على صعيد الدور الاجتماعي للمرأة. فقد كان الغزو يوفر الغنائم الضخمة بأقل جهد ممكن، وبالمقابل صار على المجتمعات المسالمة أن تدافع عن نفسها، فأصبح كل من الغازي وذلك المجتمع الذي يتعرض للغزو في حاجة ماسة إلى التكاثر السريع، في صراع من أجل البقاء، من جهة، وتطوير أسلحته المادية والمعنوية من ناحية أخرى، وقد دفعه ذلك للاهتمام بتكاثر جنسه، من صنف الذكور تحديداً، فبدأ دور المرأة يضمحل منذ ذلك التاريخ. وربما تعاظمت ممارسة وأد البنات في تلك المرحلة من تاريخ البشرية والشعوب فيما أخذت أهمية الرجل في التزايد، وغدت المرأة السبيّة محط أنظار الغزاة بوصفها منتجة لآلات الحرب والقتل البشرية[31].

وفي هذا السياق يمكن تفسير عادة وأد البنات خوفاً من السبي أثناء الغزو، أو ربما يكون الأدق والأكثر واقعية هو القول بعادة وأد الأجيال المعاقة لصعوبة الحياة في البادية ومشقات التنقل آنذاك.

---

(31) م. ن، ص 24، 25.

لا شك في أن هناك تفسيرات متعددة لهذه الأحداث التاريخية، وإلا كيف يمكن أن نفسر أسطورة سيطرة نساء الأمازون على مجتمعات الغابات الممطرة في أميركا الجنوبية، وكذلك الحال في قبيلة الطوارق في شمال إفريقيا التي وحدت قبائلهم وقادتهم الملكة تين حنان (Tin Hinan). وكيف يمكن تفسير غطاء الرأس عند رجال الطوارق بينما ليس الحجاب لزاماً على النساء!!!



مصرية بغطاء كامل للرأس

هكذا، وفي ظل الاضطرابات والفتن الداخلية، أو خلال الغزو الأجنبي، كما فعل الهكسوس في مصر، بدأت المرأة تتحجب خوفاً من الاعتداء عليها. وعندما انتصر رمسيس الثالث افتخر بانتصاره، وباستتباب الأمن في مصر، إذ نراه يخبرنا من خلال النقوش الهيروغليفية التي نقشها عبيده على الحجارة:

«أنه بإمكان المرأة أن ترفع قناعها بلا خوف ولا وجل، فلن يتعرض لها أحدٌ بسوء بعد اليوم»[32].

وهذا دليلنا على أن الحجاب لم يكن يستعمل في تلك الحقبة من التاريخ البشري إلا لغاية حماية المرأة من الأشرار ومن الغواية والسبي ومن تلويث النسب.

---

(32) باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، ص 41.

الحضارات الآسيوية

كانت المرأة الصينية تـُعامل كالرقيق، لا حقوق لها، بل كان للزوج الحق في دفنها حية من دون أي اعتراض. وقد ساهم في ترسيخ تلك المعتقدات آراء كونفوشيوس الحكيم الذي أكدت تعاليمه على ديمومة هذه المفاهيم وبقائها.



ولم تكن النساء الهندوسيات أفضل حظاً، وكن يخدمن كُهان المعابد قبل الزواج وبعده، كذلك اعتبرن جزءاً من الغنائم الحربية.



المرأة الهندوسية التقليدية

عرفت المرأة الهندوسية الحجاب حوالى القرن الرابع قبل الميلاد، ويأتينا الدليل من أحد النصوص الأدبية التي يأمر فيها الملك «راما» زوجته «سيا» أن ترفع حجابها حتى تراها الحشود المجتمعة أمام قصره. فلا غضاضة من رؤية وجه النسوة عند التضحية (أثناء العبادة)، وفي أثناء حفلات الزفاف، أو في أثناء وقوع المصيبة، أو عندما يكن في الغابات، وذلك حفاظاً على حياتهن وطلباً لوضوح الرؤية.

هناك أوامر صارمة في ديانة «مانو» بخاصة، وفي الشرائع الهندوسية بعامة، تتمثل في ألا تبحث المرأة عن الاستقلال أبداً وأن تطيع زوجها ووالدها طاعة عمياء[33]. هذه آيديولوجية شبيهة بما أنتجه فكر فلاسفة الإغريق لتسويغ عبودية المرأة فلسفياً.

وتذهب المانوية إلى أن المرأة هي الشر عينه، وهي مصدر العار، وينبغي ألا يجلس الرجل في عزلة مع امرأة، ولو كانت من أقرب أقربائه (كأننا أمام فكرة أن ثالثهما

(33) م. ن، ص 45.

الشيطان). ولكن مانو أجاز للبراهمة الكهنة الاستمتاع بالنساء في ليلتهن الزفافية الأولى قبل أن يمسهن أزواجهن[34].

(34) بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 177، 182.

التراث اليهودي

اليهودية من الديانات الذكورية في تاريخ الديانات بعامة، فقد اجتثت اليهودية صورة الأم الكبرى من نظامها الأسطوري. فبالرغم من أن حواء أم البشرية فإنها مستلة من ضلع آدم، صاحب الفضل في تكاثر الجنس البشري.



رسم لآدم وحواء والأفعى الشيطان في الجنة

والمرأة لعنة عند العبرانيين الأوائل ولا ترث طالما أن لها إخوة ذكوراً، وللأب الحق في بيع ابنته القاصر. فالمرأة بزواجها تصبح ملكاً للرجل. ويحرم التلمود أن ينظر الرجل إلى كعب امرأة غير زوجته، ويُحرِّم كذلك لمس يدها أو الحديث معها[35].

كتبت التوراة بعد نحو ستمئة عام من زمن النبي موسى، الذي عاش في القرن الثالث عشر قبل الميلاد؛ فقد تم تدوين التوراة في القرن السابع قبل الميلاد إبان الأسر البابلي[36]. وأسماء مثل مؤاب وعمون أسماء توراتية تدل على أبناء ابنتي لوط، حيث «مؤ» تعني لا، أي أن مؤاب كناية عن لا – أب، وهو نسب مؤاب إلى ابنة لوط، أي نسبه إلى أمه، كما هي الحال اليوم عند العبرانيين، إذ ينسب اليهودي الى دين أمه بالولادة، وقد حملتا من لوط بعد دمار سدوم وعمورة[37].

---

(35) G. Hoberman, *The Art of Coins*, 1st edition, London: spink, 1982, p. 44.

(36) Op. cit., p. 45.

(37) عزيز السيد جاسم، المفهوم التأريخي لقضية المرأة ص 37.



دمار سدوم وعمورة كما تخيلها القدماء

والقانون الأخلاقي ينطبق على بني إسرائيل وحدهم، أمّا التعامل مع فتيات خارج بني إسرائيل فلا يوجد عقاب للسلوك اللاأخلاقي معهم[38]. فقد قسمت التوراة الناس إلى يهود وغير يهود (Gentiles)، وهذا التقسيم العنصري لا يزال يسيطر على أذهان الصهاينة حتى اليوم. وما زاد في

أنظر، أيضاً :

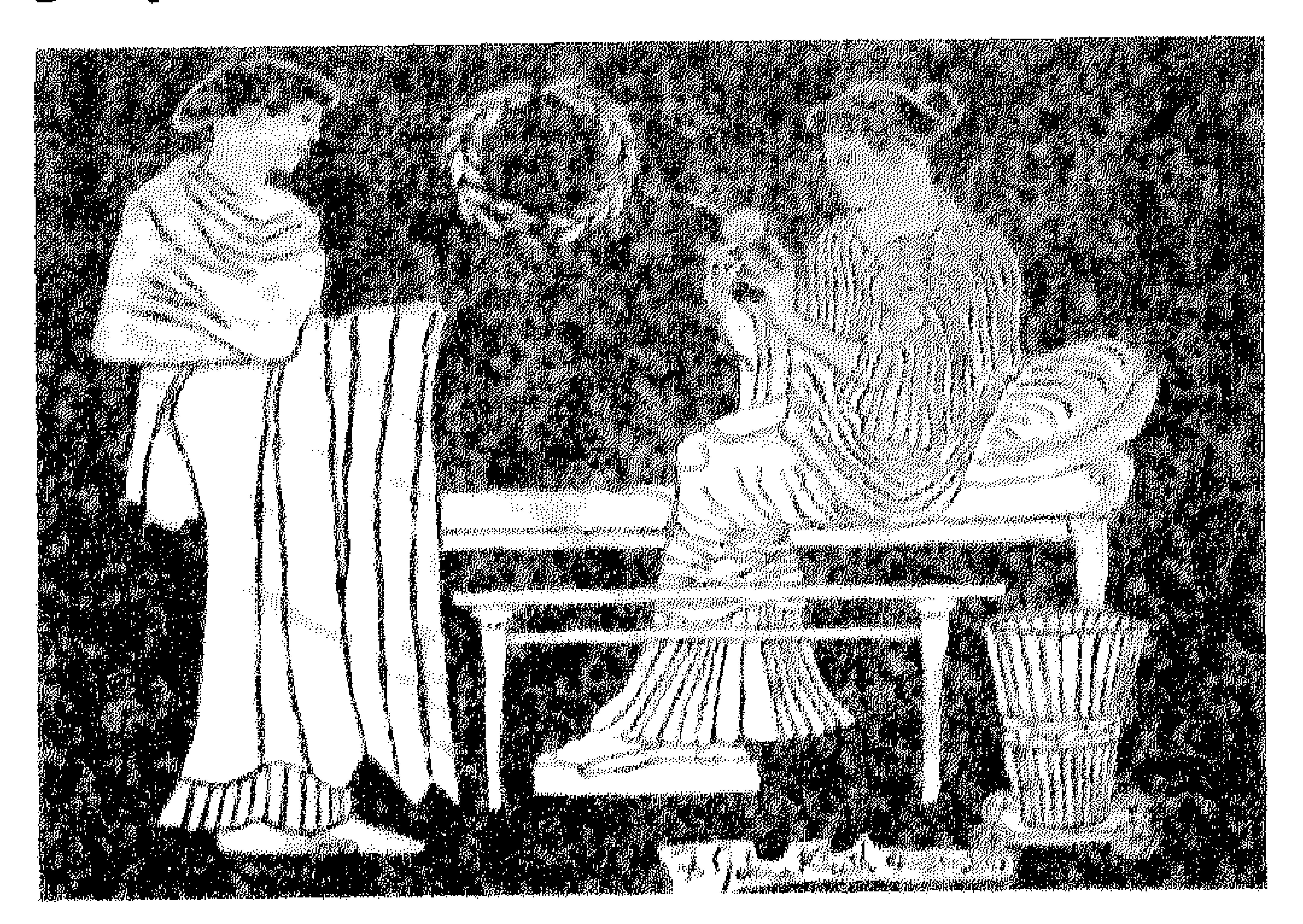
F. Engels, *The origin of the family*, Private property and the state, Op.cit

(38) عزيز السيد جاسم، م. س، ص 33.

الأمر سوءاً صعود تيارات المسيحية المتصهينة (Christian Zionism) التي شرعت منذ القرن التاسع عشر في تأسيس أيديولوجيا مفادها أنه ينبغي دعم دولة إسرائيل لإعادة بناء الهيكل وتهيئة الظروف المناسبة لبعث المسيح المنتظر لقيامة العالم (يوم البعث).

الحضارة الإغريقية

لقد عَبّرت الحضارة الإغريقية عن نضوجها في عصر بركليس (429 – 495 ق.م) (Pericles)، رجل الدولة والخطيب المفوه الذي عاش في القرن الخامس قبل الميلاد، كما شاعت في تلك الفترة مسرحيات سوفكليس (Sophocles) وأشعار الإلياذة (Iliad) والأوديسه (Odyssey) لصاحبها هومر (Homer)، وهي الأشعار التي كتبها حوالى القرن الثامن قبل الميلاد في وصف حرب طروادة (Trojan war) التي حدثت قي القرن الثاني عشر قبل الميلاد.



إغريقية من عهود حرب طروادة

حدث تقدم كبير في الفنون والأشغال الحرفية حوالى 480ـ415 ق.م، وظهرت التماثيل بإتقان كبير، وتم إحراز تقدم كبير في صناعة النقود. وربما تكون الفترة الأكثر نضوجاً هي تلك التي امتدت بين 415ـ336 ق.م[39]، ولعلها الأوج الذي وصلت إليه حين بلغت الحضارة الإغريقية أعلى مراحل تقدمها ثم شرعت بعدها في

(39) محمد فؤاد البرازي، حجاب المسلمة بين انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، دار ابن حزم، 2001، ص 46.

التدهور التدريجي. ويحدد علماء الآثار الانحدار بين 280ـ146 ق.م[40].

آلهة الإغريق القدماء كانت آلهة ذات صفات خارقة وبشرية معاً، فهي تشبه البشر في صفاتها ولكنها تتمتع بالخلود من حيث هي مميزة عنهم؛ وهي آلهة جميلة لا تخفي جمالها.

ونجد مشاركات مهمة للمرأة في الحياة العامة، فتلك أنتيغون تتساءَل حول طبيعة السلطة ومشروعيتها وتحاول تجاوز التقاليد السائدة لأداء الشعائر على جثة أخيها. فقد أوضحت الفرق بين الحق الطبيعي والحق الوضعي، ربما لأول مرة في تاريخ البشرية. وهذا يدل على دور المرأة المهم في تلك الفترة من فترات صعود الحضارة الإغريقية.

---

(40) باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، ص 34.



أنتيغون تطالب بجثة أخيها

تخبرنا الأوديسة كيف يأمر تيليماك أمه بالسكوت، وفي إلياذة هوميروس تصبح الأسيرات الإغريقيات هدفاً لشهوة قوات الجيش المنتصر[41]. وقد استدل الكثيرون من الكتّاب من هذه الوقائع على اضطهاد المرأة الإغريقية. فالكثيرون من الذين كتبوا عن الحجاب نجدهم يستشهدون بأثينا التي أنتجت الفكر الإنساني العظيم وظلت تحبس المرأة وتحجبها لفترة طويلة. ولكن الحقيقة هي أن ذلك

(41) م. ن، ص 34، 35.

الاضطهاد كان في الفترة المتأخرة التي لا تمثل مثالاً على نضوج أثينا، بل هي مرحلة انحطاط وتدهور عبّر عنها عمالقة الفكر الإغريقي والإنساني مثل سقراط وأفلاطون وأرسطو.

كانت معاملة المرأة عند الإغريق تتفاوت بين مملكة وأخرى. ففي أثينا وأيونيا، على سبيل المثال، لم يسمح للنساء بمغادرة البيت أو مجالسة الرجال، وكنّ محرومات من القراءَة والثقافة العامة، ومن الإرث، إذ اعتبرهن الأثينيون محض ممتلكات خاصة ورجساً من عمل الشيطان[42]. ولم تكن نسوة قرطاجة يظهرن في الأماكن العامة إلا وهنَّ محجبات.

ويصف ديكايرش حجاب نساء طيبة، وهي مدينة من مدن اليونان، قائلاً: «إنهن كن يلبسن ثوبهن حول وجههن بطريقة يبدو معها هذا الأخير وكأنه غطي بقناع، فلم يكن يرى منهن سوى العينين»[43].

---

(42) Peter Clayton, *Great Figures of Mythology*, 1st Edition, Magna Books, England, 1990, p. 66.

(43) *Larousse Encyclopedia of Mythology*, 5th Edition, London: Paul Hamlyn, 1964, p. 113.



نساء اسبارطة تميزن عن نساء الاغريق

أما إسبارطة فمنحت المرأة بعض الحقوق، ربما بسبب انشغال المدينة بالحرب، فاضطرت المرأة للخروج من عزلتها لتدبير شؤون بيتها، وكن متعلمات ويمارسن الرياضة. وقد حمل أرسطو على رجال إسبارطة واتهمهم

بالتساهل مع نسائهم؛ وربط أرسطو سقوط إسبارطة بالإفراط في منح النساء حقوقهن[44].

ولكن، مع تدهور الحضارة عند الإغريق، تبدلت أوضاع المرأة وراحت تختلط بالرجال، فشاعت الفاحشة، ربما نتيجة الضغوط والحرمان السابقين[45]. ولكن الحجاب ظل مفروضاً على النساء الحرائر، ورفع فقط عن الإماء والبغايا.

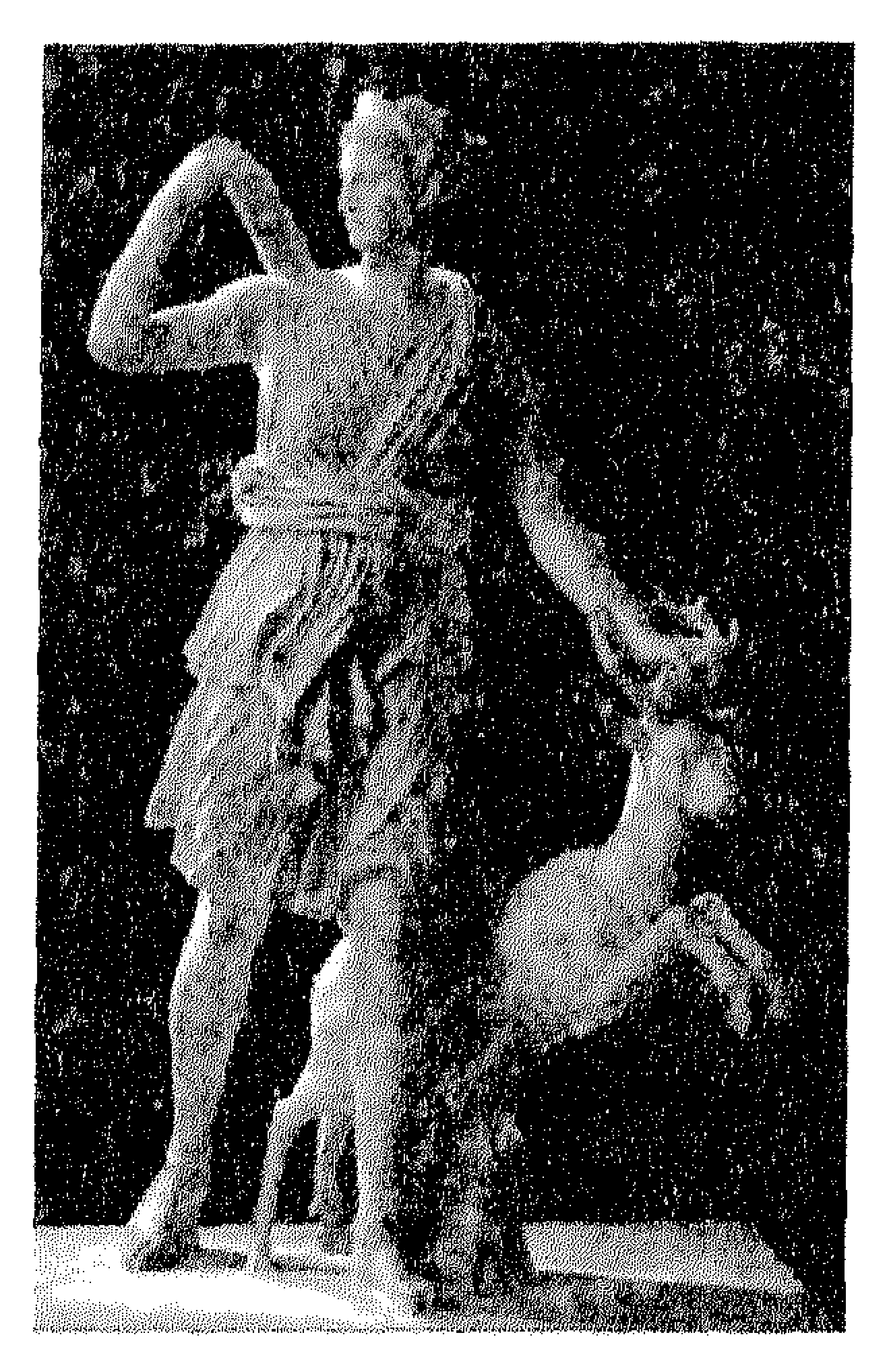
يقابل أسطورة نوح التوراتية في الأساطير اليونانية ديوكاليون (DEUCALION) وزوجته بيرها (PYRRHA). فعندما غضب زيوس، كبير الآلهة، من عدم اكتراث الجنس البشري بالدين، غضب وعاقب البشر بالطوفان. ولكنه آثر إنقاذ الشخصين الأكثر تديناً وفضيلة، فأمر بروميثيوس (PROMETHEUS)، والد ديوكاليون، بأن يبني سفينة له ولزوجته. ويقابل أسطورة ديوكاليون عند الرومان أرتميس ووالداها جوبيتر (JUPITER) ولاتونا (LATONA) (مقابل

---

(44) Kimbell art Museum, *Wealth of the Ancient World*, Summa Publishers, USA Beverly Hills, 1983, p. 215.

(45) Op. cit. p. 217.

زيوس وليتو (LETO) عند الإغريق). وأرتميس هي أيضاً أخت أبولو، وهي آلهة الصيد كذلك. وتبدو في الصورة مكشوفة الرأس في لوحة الموزاييك التي تعود إلى القرن الثاني للميلاد[46]. كذلك تظهر سافرة الرأس في التمثال الرخامي أدناه.



أرتميس آلهة الصيد عند الرومان

(46) G. Giacosa, *Women of The CAESARS*; Translated by R. Holloway, Italy: edizooni artee moneta.

والحجاب مرتبط بالزواج عند الإغريق، فنجد في صورة زواج هيرا (HERA) من زيوس وهي تشرع في خلع الحجاب عند زواجها من زيـوس[47]. والحجاب مرتبط أيضاً بالمرأة بعد الموت، إذ نجد نقوش النساء المحجبات على أضرحة القبور كما نجده ظاهراً على المسكوكات. ويمكننا مشاهدة ذلك على النقود التي صكت إحياءً لذكرى ابنة بطليموس الأول ملك مصر التي نشاهدها في الصور محجبة تعبيراً عن أنها متوفاة. وهي تعود إلى القرن الثالث قبل الميلاد[48].

وربما تكون الصورة الثانية هي صورة أول ملكة بطلمية تكَرَّم بطبع صورتها على النقود وهي لا تزال حية. هي صورة الملكة برينيس (PERENICE)[49]، وهي أيضاً تظهر بالحجاب. وربما تكون أول قطعة نقدية تظهر فيها

---

(47) إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف والمرأة : أفلاطون والمرأة، ط2 مزيدة ومنقحة، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996، ص 8.

(48) م. ن، ص 14.

(49) باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، ص 36.

النساء بلا حجاب هي كليوبترا السابعة (52–30 ق.م)، وهي من ضرب الإسكندرية[50].



كليوبترا تظهر بلا حجاب

أما سقراط، فاعتقد أن النساء غير جديرات بالحب، فعشق الشباب. وربما يعود السبب إلى حجر النساء واستبعادهن عن فصيلة الأحرار من الأثينيين حتى إنهم

(50) إمام عبد الفتاح إمام، م. س، ص 23، 25.

شكّوا في أن المرأة تملك روحاً. لقد عبّر سقراط عن بداية أفول الحضارة الإغريقية التي بلغت أوجها مع بركليس.

شرع سقراط في البحث عن الأخلاق بعيداً عن البحث الفلسفي الأصيل في الوجود، من حيث في الطبيعة والعالم وأصل الإنسان، الذي كان شغل الفلاسفة الأيونيين الشاغل والذي أوصل شهرتهم إلى القمة. ربما عبّر سقراط من خلال اهتمامه بالأخلاق عن بداية غروب شمس الحضارة الإغريقية.

وجاء أفلاطون ليتخذ من إسبارطة (Sparta) مثاله في «الجمهورية»، وتلاه أرسطو الذي أعلن مشروعه الفلسفي الكوني والموسوعي الذي سوف يسيطر على العقل البشري حوالى ألفي عام.

ولكن، ماذا بشأن النساء الإغريقيات، ألم يُخلّد التاريخ سوى آلهات الإغريق ؟ أصحيح هو القول إن التاريخ لم يخبرنا عن أي منهن؟

هناك نسوة في حياة الفلاسفة الإغريق العظام، فنجد " ديوتيما " معلمة سقراط التي أدار حولها حديث الحب في المأدبة. وهناك فلاسفة من النساء في المدرسة

الفيثاغورية. وكانت هناك والدة الإسكندر أميرة وكاهنة مشهورة ذات نفوذ واسع وصفت أرسطو بأنه ألثغ لا يملك أفكاراً خلاقة. وأرسطو نفسه تزوج مرتين[51].



سقراط يحاور ديوتيما المعلمة

(51) الغزالي، إحياء علوم الدين، لاط، القاهرة : دار الريان للتراث، ج2، 1978، ص 28.

وفيما يتعلق بأثينا تحديداً، فإن النسوة المشهورات لم يكنّ أثينيات، لذلك كان يحق لهن مجالسة الرجال في الصالونات ودور الفن والترفيه. أما الأثينيات، فعلى أغلب الظن كنّ يعتبرن ضمن أملاك الرجال وكن محجبات مسجونات داخل بيوتهن حتى يتأكد الرجل من عفّتهن ومن نقاء سلالة أولادهن الذين سيرثوه بعد مماته.

ومما زاد في اتساع الهوة بين النساء وأزواجهن مسألة الفارق الكبير في السن بين الزوجين، وهي عادة أثينية. وكان دور الفيلسوف الإغريقي هو ترسيخ مفهوم الوضع المتدني للمرأة وتقديم المسوغات العقلية للنظرة الدونية إليها.

نجد أفلاطون في محاورة الجمهورية يعتبر المرأة من مقتنيات الأسرة ووظيفتها الإنجاب ولا يحق لها التملك، ولا بد من وجود وصي عليها إذا مات أبوها أو زوجها[52]. ولكن، ألم يطالب أفلاطون بمنح المرأة حقوقها وكامل حريتها وطالب بتعليمها وتثقيفها لممارسة

---

(52) باسمة كيال، م. س، ص 37.

دورها الوطني[53]؟ بالطبع، ولكن المقصود هنا المرأة من الطبقة الحاكمة وليس المرأة الواقعة في الطبقات الأدنى: الطبقة العسكرية والطبقة المنتجة.



زيوس وعروسه هيرا

والزوجة الأثينية مخلصة لزوجها كل الإخلاص، أمّا الزوج فيحق له إقامة علاقات خارج الزواج. وبالرغم من ذلك فإننا نجد الإله زيوس الذي تزوج من هيرا (HERA)

(53) Philipgrierson, *Byzantine Coins*, London: Methuen & Co Ltd., University of California Press, Berkeley & Los Angeles, p. 346.

يقيم علاقات غير شرعية، ولكنه بوصفه إلهاً يحق له فعل ذلك في العرف الاغريقي القديم، فكان مزواجاً وأنجب ابنته أثينا خارج علاقته مع زوجته.



آلهة الحرب أثينا

أما الآلهة الأنثوية في أثينا فكانت مغلوبة على أمرها. وفي الوقت نفسه كانت الإلهة أثينا تـمتدح لما لها من صفات رجولية[54]، بوصفها فارسة محاربة أو بطلة مغوارة كما يظهر في الصورة.

خلاصة القول في هذه المسألة إن المرأة الأثينية كانت تخرج إلى الشارع العام محجبة تعلن للناس أنها أملاك خاصة لا يجوز التحرش بها أو الاعتداء عليها.

أما أرسطو فقد سعى سعياً فلسفياً لترسيخ فكرة دونية المرأة وتسويغها. وكما سادت كوزمولوجيا أرسطو وفيزياؤه حتى القرن السابع عشر، عندما أطاح بها جاليليو لصالح المنهجية العلمية الحديثة، فقد سادت على نحو مماثل أراء أرسطو في المرأة في العالمين الإسلامي والمسيحي، فنجد الغزالي يفرض الطاعة المطلقة على الزوجة ويعتبر أن المرأة خلقت للإنجاب فقط[55]. ويا ويلها إذا أنجبت الإناث، فهي المسؤولة، أما إنجاب الذكور فهو بفضل الزوج. وقد أثبت العلم الحديث اليوم

(54) باسمة كيال، تطور المرأة عبر التاريخ، ص 46 – 48.

(55) سيد القمني، الأسطورة والتراث، ص 282.

أن الرجل هو الذي يتحكم بجنس المولود ولا دور للزوجة في ذلك. أما في العالم المسيحي فلم ينادِ الحكماء بحرية المرأة إلا مع جون ستيوارت مل في القرن التاسع عشر.

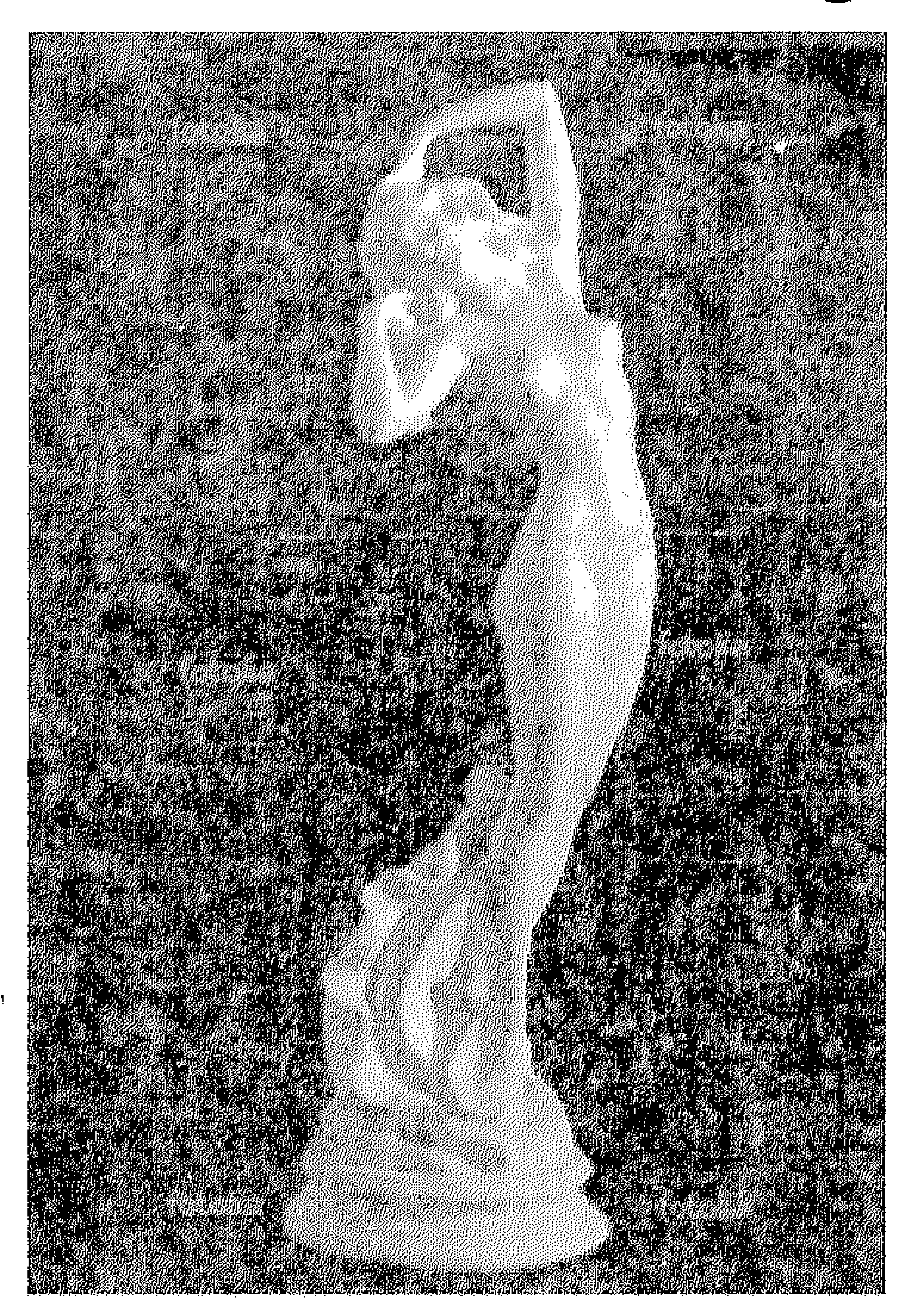
وفيما يرى بعضهم أنّ أرسطو كان سعيداً في زواجه الأول والثاني وقد أوصى خيراً بزوجته وسمح لها بالزواج بعد وفاته. ولكنه أوصى بأن يجمع رفات زوجته التي ماتت قبله بسنوات طويلة وأن تدفن إلى جوار جثمانه كما كانت رغبته. فلماذا لم يوصِ هو بأن يدفن إلى جانبها بدلاً من نقل بقاياها إلى جوار جثمانه؟

نظن أن هذا لا يغير من وضع المرأة الإغريقية في شيء، فهي من ممتلكاته الخاصة وليس غريباً أن يطلب دفنها إلى جواره؟

وبناءً عليه فإن الصعود الحضاري عند الإغريق جسد آلهة جميلة وقوية، وقد خلدها الإغريق طيلة تاريخهم الطويل. وكانت هذه الآلهة، وبخاصة الأنثوية منها، جميلة سافرة الرأس تظهر مفاتنها بلا خوف أو وجل، حتى آلهة الحرب عند الإغريق – أثينا – فهي أنثى جميلة. ومع تدهور الحضارة الإغريقية وتعرض أثينا للمخاطر من كل

حدب وصوب أجبرت المرأة على التحجب وركنت في ركن من أركان المنزل حتى لا تتعرض للخطر والسبي، وأوقف العبيد والكلاب المدربة لحراستها. وربما تزامن هذا مع انتشار الملكية الخاصة التي أكدت على تحجب المرأة وتقوقعها حفاظاً عليها ملكاً خاصاً لا يجوز الاعتداء على حرمته ضماناً لنقاء سلالة الأولاد الذين سيصبحون مُلاّك المستقبل من مقتنيات والدهم وأراضيه وعبيده ونسائه وفضته.

نرغب أخيراً في تأكيد ما ذهبنا إليه من خلال مشاهدتنا لتماثيل أفروديت (آلهة الحب والجمال عند الإغريق) في متحف نيقوسيا بقبرص خلال زيارتنا له مطلع عام 2004. فقد لفت نظرنا أو لحظنا ظهور تماثيل أفروديت، لغاية القرن الأول الميلادي، وهي تبدو عارية تماماً، وقد قطع رأسها أو شوهت أعضاؤها المختلفة، ربما بسبب الزلازل أو التشويه الذي أصاب التماثيل على يد المسيحيين الأوائل.



تمثال لآفروديت سلم من التكسير وتبدو فيه عارية تماماً

ولكننا وجدنا في المتحف أيضاً أن هناك تمثالاً لأفروديت من المرمر يعود إلى القرن الثاني وتبدو فيه وهي تغطي بيديها المناطق الحساسة من جسدها، أما تماثيلها بعد القرن الثاني للميلاد فغدت مستورة بالثياب.



تمثال لآفروديت مستور بالأقمشة

وهكذا فقد دخل الحجاب طوراً مهماً بدخول المسيحية إلى أوروبا!

الحضارة النبطية

تظهر الملكة النبطية شقيلة زوجة الملك الحارث الرابع الثانية في النقد المضروب بعد وفاة زوجته الأولى «خلدو» ببضع سنوات قبل الميلاد أو بعده بقليل.

وفي عهد الملك الحارث الرابع والملكة شقيلة انداحت التجارة النبطية في العالم القديم ووصل تجار الأنباط الى الموانىء الرومانية الرئيسة في ايطاليا ، حيث شهدت هذه المرحلة ازدهاراً حضارياً مميزاً، إذ تم إنشاء العديد من المعالم الأثرية والمباني العامة في البتراء كالمسرح ومعبد قصر البنت والواجهات المنحوتة في الصخر .



الملك الحارث الرابع وزوجته شقيلة

وتظهر صورة الملكة النبطية شقيلة الى جانب صورة زوجها الملك الحارث الرابع في القطعة النقدية وهما على قدم المساواة، وهذا يدل على تقدم سيرة الملكة النبطية شقيلة ومكانتها وحرص الطبقة الحاكمة في تلك الفترة على قيم التقدم والازدهار، وبروز أهمية مكانة المرأه في المجتمع النبطي القديم.

كما تظهر الملكة شقيلة امرأة حالمة ترفع رأسها الى الأعلى وشعرها المجدول مموجاً يتدلى عند أطراف أكتافها وهي تختال بمجدها ونفوذها، في الوقت الذي كان يتراجع فيه دور المرأة الاغريقية نظراً لاتّساع هيمنة روما على العالم القديم!

الحضارة الرومانية

حصلت المرأة الرومانية على بعض حريتها، وهو تطور طبيعي رأينا إرهاصِاته في فكر أفلاطون الذي عبر عن قمة الإبداع الإغريقي في الفكر الإنساني، ولكن المرأة الحرة ظلت خاضعة لسلطة رب العائلة إذا كانت عزباء، وخاضعة لسلطة زوجها بعد الزواج. أما المرأة الرقيق فكانت خاضعة لسيدها خضوعاً تاماً[56].

وكما رأينا في تماثيل أفروديت كيف بدأت تتستر بالتدرّج بتأثير من المسيحية، فقد امتد التأثر ليشمل آلهة النصر عند الرومان. فقد اختفت آلهة النصر المجنحة فكتوريا (Victoria) حوالى مطلع القرن السابع الميلادي بتأثير من انتشار المسيحية، ولكن عادت صورها لتظهر في عهد الإمبراطور جستين الأول (Justin I)، ولكن ليتحول

(56) بول بريشاور، الجنس في العالم القديم، ص 237.

اسمها إلى فكتوري (Victory)، أي النصر، وأصبحت على هيئة ملاك ذكر[57].



آلهة النصر الرومانية المجنحة الجميلة
قبل أن تحولها المسيحية الى ملاك ذكر

(57) م، ن، ص 256.



تحوّل آلهة النصر فكتوريا (Victoria) إلى ملاك ذكر

هذا التحول جاء بتأثير من اليهودية ثم المسيحية، وبوحي من العهدين القديم والجديد، إذ سوف نتحرى مدى أثرهما في فرض الحجاب على المرأة.

الثقافة المسيحية

أعادت التقاليد المسيحية للأم الكبرى سابق مجدها وغدت أماً كونية ووالدة الإله الذي اقترب من البشر وتجسد على شكل السيد المسيح[58]. هذه الأم – العذراء – التي أصبحت الأم الشفيعة للمسيحيين وبلغت مرتبة مهمة في طقوس العبادات والعجائب.



السيدة العذراء

(58) فراس السواح، لغز عشتار، ص 59.

ثم جاء السيد المسيح ليرفع من أهمية المرأة، فأكرم أمه وأحسن معاملتها، ودافع عن حقوق الأرامل، وعن الخاطئات:

"من كان منكم بلا خطيئة فليرجمها بحجر".

لقد قطع المسيح مع التوراة – العهد القديم من الإنجيل، وقد تبدى ذلك بوضوح في خطبة الجبل، بقوله:

لقد قيل لكم العين بالعين والسن بالسن، أما أنا فأقول لكم : من لطمك على خدك الأيمن فأدر له الأيسر. لقد فتح المسيح صفحة جديدة في تاريخ البشرية.

وعندما سُئِل المسيح: هل يحل للإنسان أن يطلق زوجته لأجل علـّة، قال:

أما قرأتم أن الذي خلق الإنسان في البدء ذكراً وأنثى ... وما جمعه الله لا يفرقه إنسان، فقالوا له فلماذا أوصى موسى أن تعطى كتاب طلاق وتخلّى، فقال لهم: وأنا أقول لكم من طلق امرأته إلا لعلّة زنى وأخذ أخرى فقد زنى. ومن تزوج مطلقة فقد زنى[59].

---

(59) إنجيل متى 19/ أية 2ـ9.

هناك تغيير جذري في موقف المسيحية من المرأة كما رأينا.

وهناك عقاب لمن لا تغطي شعر رأسها أثناء الصلاة في المسيحية:

«وكل امرأة تصلي أو تتنبأ ورأسها مكشوف فإنها تشين رأسها لأنها إنما تكون كما لو حُلق شعرها. إن المرأة إن لم تتغطّ فليقص شعرها.....»[60]. وهذا النص من رسائل بولس الرسول وليست للسيد المسيح.

وفي رسالة بولس الى أهل كورنثوس: احكموا في أنفسكم: هل يليق بالمرأة أن تصلي إلى الله وهي غير مغطاة؟

كما منعت النساء من التكلم في داخل الكنيسة:

«فإن ابتغين أن يتعلمن شيئاً فليسألن رجالهن في البيت فإنه عار على النساء أن يتكلمن في الكنيسة»[61].

وهذا دليل على أن الرجل هو طريق المرأة إلى المعرفة بالناموس، وهو بالتالي طريقها إلى الخلاص.

---

(60) رسالة بولس الأولى إلى أهل كورونثوس : 11/4، 5.

(61) م. ن، 14/35.

وهذه تبعية خالصة لم تسلم منها المرأة بالرغم من تحسن أحوالها عما كانت عليه الحال أيام اليهودية، ولكنها سوف تنتظر طويلاً حتى تتحرر بدءاً من خروج أوروبا من عصور الظلمات، مروراً بالثورات الاجتماعية والثورات العلمية والثورات الصناعية التي اجتاحت العالم منذ عصر النهضة الأوروبية، وحتى عهد قريب لم يسمح فيه للنساء بالدراسة في الجامعات الأوروبية أسوة بالرجال، إذ لم يكن ممكناً انخراط النساء رسمياً وبصورة دائمة في جامعة أكسفورد البريطانية إلا نحو عام 1920، حيث تمكنَّ بعدها من التخرج والحصول على شهادات مكتملة.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع العربية:

1ـ إمام عبد الفتاح إمام، الفيلسوف والمرأة : أفلاطون والمرأة، ط2 مزيدة ومنقحة، القاهرة: مكتبة مدبولي، 1996.

2ـ باسمة كيّال، تطور المرأة عبر التاريخ، لا طبعة، لا مكان نشر: مؤسسة عز الدين للطباعة والنشر، لا تاريخ نشر.

3ـ بول بريشاور، الجنس في العالم القديم؛ ترجمة فائق دحدوح، العراق: دار نينوى، 1999.

4ـ خزعل الماجدي، إنجيل سومر، ط1، عمّان : الأهلية للنشر والتوزيع، 1998.

5ـ سيد القمني، الأسطورة والتراث، ط3، القاهرة: المركز المصري لبحوث الحضارة، 1999.

6ـ عباس محمود العقاد، الله، ط1، القاهرة: دار نهضة مصر، 1994.

7ـ عبد السلام الترمانيني، الرق: ماضيه وحاضره، ط1، الكويت: عالم المعرفة، 1979.

8ـ عزيز السيّد جاسم، المفهوم التأريخي لقضية المرأة، لا طبعة، لا مكان نشر: لا دار نشر، 1986.

9ـ الغزالي، إحياء علوم الدين، لاط، القاهرة : دار الريان للتراث، ج2، 1978.

10ـ فراس السواح، مغامرة العقل الأولى: دراسة في الميثولوجيا السورية والرافدينية، ط1، دمشق: اتحاد الكتاب العرب، 1976.

11ـ فراس السواح، لغز عشتار، ط6، دمشق: دار علاء الدين، 1996.

12ـ الكتاب المقدس، العهد الجديد.

13ـ محمد فؤاد البرازي، حجاب المسلمة بين انتحال المبطلين وتأويل الجاهلين، لا طبعة، بيروت: دار ابن حزم، 2001.

14ـ مجموعة من الباحثين، حضارة العراق، ج4، لاط، بغداد: دار الحرية للطباعة، 1985.

المصادر والمراجع الأجنبية:-

1- Clayton, Peter, *Great Figures of Mythology,* 1st Edition, Magna Books, England, 1990.

2- Engels, F., *The origin of the family, Private property and the state, Written:* March-May, 1884; First Published: October 1884, in Hottingen-Zurich.

3- Giacosa, G., *Women of The CAESARS*; Translated by R. Holloway, Italy: edizooni artee moneta.

4- Grierson, Philip, *Byzantine Coins*, London: Methuen & Co Ltd., University of California Press, Berkeley & Los Angeles.

5- Hoberman, G., *The Art of Coins,* 1st edition, London: spink, 1982.

6- Kimbell art Museum, *Wealth of the Ancient World,* Summa Publishers, USA Beverly Hills, 1983.

7- Larousse Encyclopedia, 1960 edition.

8- Larousse, *World Mythology*, Edited by Pierre Grimal, 1st edition, London: Paul Hamlyn, 1965.

9- Larousse Encyclopedia of Mythology, 5th Edition, London: Paul Hamlyn, 1964.

كتب للمؤلف

كتب علمية

* نهاية العالم على مذبح التغير المناخي (قيد الطبع).
* الطاقة النووية ما بعد فوكوشيما (2011).
* علماء النهضة الأوروبية (دار الفارابي، بيروت، 2011).
* ظاهرة الانحباس الحراري، أمانة عمّان الكبرى (2010).
* الطاقة المتجددة في حياتنا، مكتبة الأسرة الأردنية، وزارة الثقافة (2010).
* رحلة في تاريخ العلم (دار الفارابي، بيروت، 2010).
* البيئة في مئتي سؤال (دار الفارابي، بيروت، 2010).
* العلم والفلسفة الأوروبية الحديثة: من كوبرنيق إلى هيوم (دار الفارابي، بيروت، 2009.
* مخاطر اليورانيوم المشع (مترجم، 2008).

* علم البيئة وفلسفتها (دار ورد، عمّان، 2008).
* دليل الأسرة في توفير الطاقة، مكتبة الأسرة الأردنية، وزارة الثقافة الأردنية (2008).
* حوارات حول الرطوبة في الأبنية (2005).
* الرطوبة والعفن في المباني (ط1، ـ1992 ط2، 2002).
* عيوب الأبنية (ط1، ـ1986 ط2، 2001).
* علم أخلاق البيئة (مخطوط).
* الأبنية الخضراء (مخطوط).
* الطاقة النووية: من تشرنوبل إلى فوكوشيما (مخطوط مشترك).

كتب فكرية

* فلسفة التحرر القومي العربي (مؤلف مشارك، 2003).
* عباس محمود العقاد: من العلم إلى الدين (2003).
* حروب الفرنج ... حروب لا صليبية (ط1، 2004 – ط2، 2008).
* إسماعيل مظهر: من الاشتراكية إلى الإسلام (ط1، 2004 – ط2، 2008).

* تنمية التخلف العربي: في ظلال سمير أمين (2004).
* غالب هلسا مفكراً (مؤلف مشارك، 2005).
* سلامة موسى: من رواد الفكر العلمي العربي المعاصر(2006).
* موسوعة أعلام الفكر العربي الحديث والمعاصر (ط1، 2008 – ط2، 2012).
* محمّد أركون مفكراً (مؤلف مشارك، مخطوط).

المحتويات

مع اشتداد أهمية مسألة الحجاب في أوروبا بعد أحداث 11 سبتمبر/ أيلول الشهيرة يتساءَل الكتاب عن أصول الحجاب في التاريخ، متى بدأ، ولماذا، وما هي الشروط الاجتماعية والسياسية والثقافية والتاريخية التي حكمت على المرأة ارتداءه؟ وذلك للكشف عن جذور فكرة غطاء رأس المرأة ومنطوياتها الفكرية في الحضارات التاريخية العظيمة.

انطلاقاً من المجتمعات البدائية صعوداً حتى بلاد ما بين النهرين خلال الألفية الرابعة قبل الميلاد، بحثنا عن جذور الحجاب في حضارة سومر، ثم في حضارة الأكديين في الألفية الثالثة قبل الميلاد، وما تبعها من حضارات أشورية وبابلية.

كذلك بحثنا في أصل الحجاب في حضارة مصر القديمة منذ الألفية الثالثة قبل الميلاد، وما كان يقابلها في تلك الفترة من حضارات آسيوية، وصولاً إلى الحضارة الإغريقية ابتداءً من القرن الخامس قبل الميلاد ولغاية هيمنة الحضارة الرومانية عليها، ودخولها في المسيحية فيما بعد.

